المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الخامس بعد المائة

١ نوفمبر سنة ١٩٤٤ ١٥ ذي القعدة سنة ١٣٦٣

النقل الجوي الدولي

آفاقه ومشكلاته — بعد الحرب

لباب المشكلة

هي المقاتلات والقاذفات التي تستوقف أخبارها الأنظار وتغصب فعال رجالها الإعجاب ، ولكن طائرات النقل هي الطائرات التي أحدثت انقلاباً خطيراً في ميدان النقل العالمي ، ربما لا يجاريه انقلاب آخر أحدثتهُ هذه الحرب في سعة مداه وعمق أثره .

فحين نشبت هذه الحرب في خريف سنة ١٩٣٩ كان النقل الجوّي الدولي آخذاً في الاتساع . فقد تضاعف طول الخطوط التي تجتازها طائرات النقل بين سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣٨ وزاد عدد الأميال التي تقطعها ثلاثة أضعاف . ومع ذلك فلا بدَّ من التسليم بأن الطائرات لم تحوّل قارات الأرض ومحيطاتها « عالماً واحداً » على حدّ قول ويلكي إلاَّ خلال هذه الحرب . فقد اختزلت مسافات السفر وقصرت زمن الرحلة بين مواقع بعيدة ، من أسابيع وأيام في السفينة وسكة الحديد ، إلى ساعات في الطائرات . ففي كل أسبوع يرحل قومٌ من الشرق الأوسط إلى الولايات المتحدة ، أو من الولايات المتحدة إلى الشرق الأوسط ، فلا تستغرق الرحلة أكثر من ثلاثين ساعة إلى أربعين .

وقد روت مجلة الميكانيكا العامة منذ أشهر الحادثة التالية : جلس عامل الإشارة اللاسلكية في مقرّ القيادة في وشنطن أمام جهازه . وإذا الجهاز يسجل رسالة من قيادة ماك آرثر في الجانب الآخر من الكرة . وكان مؤدّاها أن الجنرال يحتاج إلى طنين من قطع الغيار في أستراليا وأن حاجته إليهما شديدة . فلم تمض دقائق معدودات ، حتى كانت قيادة

التموين في الجيش الأميركي قد عيَّنت المصنع الذي يمكن أن تؤخذ منه هذه القطع ، وبعد دقائق أخرى تلقى قائد طائرة من طائرات قيادة النقل إشارة ، وكان في طريقه بين مدينتين أميركيتين ، وطائرتهُ مشحونة شحناً ما . وكان الزمن قرب منتصف الليل حين تلقى الطيار هذه الإشارة ، فانحرف عن سيره إلى مدينة لم تكن في جدول سيره . فأفرغ شحن طائرتهِ وشحن القطع التي طلبها ماك آرثر واتجه بها إلى مطار على ساحل أميركة الغربي فبلغهُ في الصباح ، وتولّت طائرة أخرى نقل هذه القطع إلى أسترالية فبلغتها في ثمانٍ وأربعين ساعة !

وإذن يحق لنا أن نتوقع ، غداة نهاية الحرب ، أن يتحقق ما تعلن عنهُ بعض شركات الطائرات ، من أن أبعد مكان على سطح كرة الأرض لا يبعد عن أي مطار أكثر من ستين ساعة بالطائرة. ولذلك ينتظر أن يتسع نطاق النقل الجوي الدولي ، حين تضع الحرب أوزارها اتساعاً يفوق اتساعه فيما بين سنة ١٩٣٠ و ١٩٣٨ .

على أن هذا الاتساع لن يتمَّ على وجههِ الصحيح ، إلاَّ إذا نظرت الحكومات وشركات الطيران إلى الموضوع نظرة التعاون الصحيح ، بدلاً من أن يكون مثاراً للنزاع بينها . وقد دارت في العهد الأخير مناقشة على جانبي المحيط الأطلسي ، أثارت بعض النفوس . ولكن يرجى أن يسفر المؤتمر العتيد في شيكاغو عن التفاهم على مسألة النقل الجوي ، كالتفاهم الذي أسفر عنهُ مؤتمر خبراء النفط منذ أشهر . فليس ثمة خدمة ما تسدى إلى أحدٍ ، إن قال الأميركيون إن مستقبل الولايات المتحدة يتعرَّض للخطر إن لم يسمح لطائراتهم بأن تطير في كل جوٍّ وفوق كل أرض ، أو إن قال البريطانيون إن بريطانية يحف بها الخطر إن لم تكن جامعة الأمم البريطانية مباحة لخطوط النقل الجوي البريطانية محرَّمة على غيرها . ويزداد الموضوع غموضاً حين يتحدَّث الذين لا يحملون تبعة ما يقولون حديث المستخفّ عن «السيادة» و«حرية الجوّ» وما أشبهها . فالنقل الجوّي الدولي ، لهُ وجوهٌ متعددة من النفع ونواحٍ لا تحصى للاتساع ، وحدودٌ لا يمكن أن يتعدَّاها الآن . فيجب أن تبحث جميع هذه المسائل بحثاً يتحكم فيهِ العقل الراجح والفكر الموزون . وهذا المقال يفرض استقرار العالم استقراراً سياسيًّا ، يتيح للباحث أن يقيم الوزن للاعتبارات الاقتصادية المحض دون الحربية . وإلى أن تنتهي الحرب ويستتب السلام وتنفذ أحكامهُ ، يجب أن يفرض كذلك أن دول المحور لن يكون لها نصيب في شبكة المواصلات الجوّية الدولية ، خلال سنوات بعد الحرب على الأقل ، أو إطلاقاً .

مستقبل النقل الجوي

لا مفرَّ من الاعتراف بأن الضرورة الحربية تفرض الآن طبيعة المواصلات الجوّية العالمية ومشكلة خطوطها المتقاطعة . فطائفة كثيرة من خطوط النقل الجوّي المألوفة الآن ،

لا صلة بينها وبين خطوط النقل الجوي التي يحتمل أن تظلَّ مستعملة بعد الحرب . فقد تقتضي الضرورة الحربية إنشاء خط جوي يتبع دائرة كبيرة على سطح الكرة مارَّة بالقطب ، لكي تنقل الطائرات عتاداً حربيًّا لازماً من اميركة إلى أستراليه أو الفيلبين في أقصر مدة ، ولكن من الجائز حين تنقضي هذه الضرورة أن تعجز شركة من شركات النقل الجوّي عن أن تنشىء خطًّا جويًّا يتبع هذه الدائرة ، وأن تقيمهُ على أساس تجاري .

وثمة عاملان أساسيان في تقرير هذه الخطوط ، أما الأول فهو أن معظم المدن الكبيرة في شتى بلاد الأرض واقعة إلى الجنوب من خط العرض الستين . وإذن فالطيران من إحدى هذه المدن إلى مدينة تقابلها على الناحية الأخرى من الكرة ، فوق القطب — وهذا هو أقصر طريق بينهما — لا يحتمل أن يجنى منه نفع تجاري ، لأن الطائرة ، في طيرانها فوق منطقة القطب الشمالي حيث تتبع دائرة كبيرة مارة بمركز القطب ، لا تمر فوق بلاد كثيرة يمكن أن ينقل منها أو إليها مايستحق الذكر . ولذلك قد تفضل طرق أطول لكي يتاح للطائرات أن تمر فوق بلاد تستطيع أن تنقل منها أو إليها شحنات يدفع أجر نقلها . وأما العامل الآخر فهو الوقود الذي تستهلكه الطائرة بالقياس إلى وزن الشحن المأجور . وقد ثبت أن طائرات النقل الأميركية ، من طراز دوغلاس د س ٣ التى تحمل ٢٠ راكباً مسافة ٥٠٠ ميل تستهلك ألفي رطل من الوقود لكل ٥٠٠٠ رطل من الحمل الذي تحمله . فاذا طبقنا ذلك على رحلات أطول مدى فوق القطب ، وجب أن تنقلب النسبة ، أي أن يصبح مقدار الوقود المستعمل ٥٠٠٠ رطل من الوقود لكل ٢٠٠٠ رطل من الحمل . فالطائرة التي تعبر المحيط الأطلسي تحمل الآن ١٨٠٠٠ رطل من الوقود مقابل ما وزنه ٤٠٠٠ رطل من الركاب أو الشحن . ومع ان ارتقاء صناعة الطائرات يتيح رحلات طولها ٣٠٠٠ ميل أو ٤٠٠٠ ميل ، فان تسييرها على أساس تجاري هذه المسافة غير مستطاع لارتفاع نسبة الوقود اللازم بالقياس إلى ما تحمله الطائرة ممَّا يدفع عنه أجر للشركة التي تسيرها .

ومهندسو الطيران يصممون الآن طائرات نقل تستطيع أن تقطع المسافة بين نيويورك ولندن في اثنتي عشرة ساعة ، ولكن هذا ليس مستطاعاً إلاَّ بتقليل ما تستطيع الطائرة أن تحمله لزيادة الوقود اللازم للرحلة . والطائرة نفسها تستطيع أن تقطع المسافة بين المدينتين إذا هي وقفت ثلاث مرات في الطريق — في نيوفندلند وجرينلند وأيسلند . وهذا يمكنها من أن تقلل ما تحمله من الوقود لكل مرحلة من الرحلة كلها ، فتزيد ما تحمله من ركاب أو بضائع ، وهذا يتيح للشركة التي تسيّرها أن تخفض أجور النقل . نعم إن المدة التي تستغرقها الرحلة تكون أطول من مدة طائرة تطير رأساً من نيويورك إلى لندن ، ولكن زيادة المدة

تجعل تسيير الطائرة على أساس تجاري أمراً مستطاعاً . ولذلك يحتمل أن تشتمل خطوط النقل الجوي بين أميركة وبريطانية ، على النوعين جميعاً ، وفقاً للحاجة . وعلى أن بعض المشتغلين بالطيران يقولون إن أجر النقل الجوي للراكب الواحد بين نيويورك ولندن سيكون ٢٥ جنيهاً ، وأن البعض الآخر يقول إنه ستصنع طائرات تتسع لأربع مئة راكب ، فالمحتمل أن تكون الطائرات التي تعبر شمالي المحيط الأطلسي ، مما يتسع لأربعين أو خمسين راكباً وأن أقل أجر لن يقل عن خمسين جنيهاً . وقد يكون هذا الأجر دون الحقيقة إن لم يتح للطائرات أن تحمل بريداً مستعجلا يعوّضها من بعض النفقة الكبيرة .

والغالب كذلك أن تكون الطائرات التي تنقل البضائع مما يقطع الطريق بين أميركة وبريطانية أو بريطانية وأميركة في مراحل قصيرة . فقد يضطر القواد أن ينقلوا بالطائرات سيارات ومدافع في أثناء الحرب ، ولكن لا يحتمل أن يعمد المصدّرون والمستوردون إلى إصدار الثلاجات الكهربائية واستيرادها بالطائرات — إلاَّ إذا عزَّت كلُّ وسيلة أخرى من وسائل النقل. فنفقة النقل الجوّي عالية والتقدير الغالب الآن هو أن أجرة النقل الجوي لما زنتهُ طن مسافة ميل ، تتفاوت بين خمسة قروش وعشرة قروش . على حين لا يكلف نقل الطن مسافة ميل بالقطار أكثر من ربع قرش وبالسفينة ربع المليم . وقد يتمكن رجال النقل الجوّي من خفض أجرة النقل إلى نصف ما هي عليهِ الآن ، بعد سنوات ، ولكنها تظلّ مع ذلك عالية جدًّا إذا قيست بأجرة النقل بالقطار والسفينة . ولذلك يشكُّ الخبراء في أن تستعمل طائرات الشحن لنقل شيءٍ عدا البضائع التي لها قيمة عظيمة ، أو التي تقضي الحاجة الملحة بنقلها على أسرع وجهٍ مستطاع .

نظام جديد للنقل الجوي

فإن لم يكن ثمة ما يحول دون التوسّع العظيم في النقل الجوّي ، من نواحي الصناعة والتجارة ، فما هي المشكلة التي تحيّر الحكومات ودوائر الطيران ، وتثير الجدال وتعقد المؤتمرات لبحثها كمؤتمر شيكاغو الذي ذهب إليهِ وفد مصري من أيام ؟.

في الوسع تلخيص المشكلة في السؤال التالي : هل يسمح القانون الدولي الخاص بالطيران ، بهذا التوسّع دون عائقٍ يعوقهُ ، ودون نزاع بين الدول يثيرهُ ، وإذا كان الجواب بالنفي فأي نظام يجب أنْ يحلَّ محلهُ ؟.

بحث الخبراء المنزَّهون عن الهوى هذا الموضوع فإذا هناك خمس قواعد عامة تستطيع الدول وشركات الطيران أن تختار بينها ، لاتخاذ إحداها أساساً لهذا النظام المطلوب . وهي :

(أولا) تجديد النظام الذي كانَ متبعاً قبل نشوب الحرب وهو قائم على مبدإ « النطاق الجوّي الخاص » والاتفاقات المتبادلة. (ثانياً) جعل جميع خطوط الطيران — ما عدا الخطوط الداخلية في بلدٍ ما — خطوطاً دولية. (ثالثاً) إطلاق حرية الجوّ على نحو ما كانت الدول تسعى إلى تحقيق « حرية البحار ». (رابعاً) حرية العبور أي إطلاق الحرية للطائرات أن تعبر جوّ أية دولة، وأن تقف في قواعد معيّنة للتزوّد بالوقود والمعونة الفنية ولكن دون أن يكون لها الحق في أن تنقل شحناً من القواعد التي تقف فيها. (خامساً) حرية العبور مقرونة بتوزيع الخطوط الجوية الدولية فيما بين الدول المختلفة.

١ — كانت القاعدة التي قام عليها النقل الجوّي الدولي قبل نشوب الحرب، تعرف بقاعدة « سيادة الجوّ » في الولايات المتحدة وقاعدة « النطاق الجوّي المقفل » في بريطانية. وعلى أن « السيادة » صورة قانونية لا يحتمل أن تتبدّل الآن، فيجوز أن تظلّ الأمم محتفظة بسيادتها القانونية، دون أن يحول ذلك دون اتفاقها على الحدّ من ممارسة تلك السيادة في بعض النواحي. ولذلك يفضل الخبراء التعبير الإنكليزي — النطاق الجوي المقفل — لتصوير مبدإ النظام القديم في النقل الجوّي الدولي، على التعبير الأميركي.

وهناك اتفاقان دوليان — أحدهما اتفاق باريس سنة ١٩١٩ واتفاق هافانا سنة ١٩٢٨ — يحكمان النقل الجوي الدولي، وبمقتضاهما يتعين على كل شركة طيران تسير طائراتها بين الدول أن تظفر بإذن في تسيير هذه الطائرات من حكومات الدول التي تجوزها هذه الخطوط أو تطير الطائرات في جوّها. وهذا الإذن لا يقتصر على المرور فوق أرض هذه الدولة أو تلك، بل يشمل كذلك النزول في قواعدها الجوّية، وتفريغ الشحن وإنزال الركّاب، وأخذ شحن جديد أو مسافرين، وكذلك التزوّد بالوقود والظفر بما يلزم لإصلاح الطائرة، واللجوء إلى هذه القواعد أو الهبوط في أرض خلاءٍ، نجاةً من عاصفةٍ تهبّ او عطل يصيب الطائرة.

وقد اقتضى تطبيق هذه القاعدة مساومة طويلة معقدة بين الحكومات للظفر بترخيص من هذا القبيل، وللاتفاق على تبادل الترخيصات. وقد بلغ عدد الاتفاقات التي تشمل بلاد أوربة وحدها مئة اتفاق أو تزيد، قبل سنة ١٩٣٩. نعم كانت هناك رقع من سطح الأرض يتاح فيها لشركات الطيران نفسها أن تتفق مع الحكومات مباشرةً على حقوق النزول في أرضها والطيران في جوّها وما أشبه ذلك وفي طليعتها بلاد أميركة اللاتينية، فإذا استثنيت هذه البلاد، فإن المفاوضة والمساومة اللتين كانت تسبقان كلّ اتفاق، كان من شأنهما تعويق تقدم النقل الجوّي. وقد ظلّت خطوط كثيرة للنقل الجوّي غير مستعملةٍ، لتعذّر الاتفاق على الدول صاحبة الشأن فيها، مع أنها كانت تبشر بنجاح عظيم.

فإذا اختارت الدول ودوائر الطيران بعد الحرب أن تسلك هذا الطريق، طريق المفاوضة على إنشاء الخطوط الجوية، فعسى أن لا يتعذر عليها أن تتفق، ولكن ليس ثمة ريب في أن المفاوضة والمساومة على الحقوق وعقد الاتفاقات المتبادلة من شأنها أن تؤخر توسيع شبكة المواصلات الجوية الدولية، في المراحل الأولى التي تلي انتهاءَ الحرب. خذ على ذلك مثلاً واحداً. فقد تطلب إحدى شركات الطيران الأميركية ترخيصاً بانشاء خط جوّي يتبع الدائرة الكبيرة، من شيكاغو إلى سنغافورة وباتافيا. فإذا أريد إنشاء هذا الخط على قاعدة المفاوضة والمساومة، وجب أن تعقد اتفاقات خاصة مع كندا واتحاد السوفيت والصين وفرنسة وبريطانية وهولندة. ومن المرجَّح أن تتطلَّع كل دولة منها إلى الظفر بحقوق خاصة بها لقاءَ ما تمنحهُ من حقوق للآخرين. وفي وسع دولة واحدة منها أو مجموعة من الدول أن تؤخر — إن قصدت — إنشاء هذا الخط حتى تصبح قادرة أن تستفيد من الحقوق التي تستطيع أن تظفر بها من وراءِ المفاوضة والمساومة.

وعلى أنَّ التأخير في إنشاء خطوط الطيران الدولية خطر في حد ذاتهِ على تقدم النقل الجوّي، ولكنهُ ليس الخطر الأكبر، ذلك بأن هذا الضرب من المساومة والمنافسة، قد يفضي إلى قيام نزاع بين الدول، قد يعكّر صفو السلام، ولاسيما لأن بعض الدول، ستكون في الفترة التي تلي نهاية الحرب مباشرة، ونتيجةً لجهودها الحربيّ، أقدر من غيرها على النزول إلى ميدان النقل الجوّي الدولي، لما ظفرت بهِ من تجربة في بناء طائرات النقل العظيمة وتسييرها وتدريب عدد وافر من الرجال على ذلك.

٢ — تحويل خطوط الطيران خطوطاً دوليةً. هذا المقترح، هو أجرأ المقترحات، ولبابهُ تحويل جميع خطوط الطيران بين الدول خطوطاً دولية. ولكنَّ تعبير «تحويلها خطوطاً دولية» يحتاج إلى توضيح. هل يعني الاتفاق الدولي على أجور النقل والسفر، والمساعدات التي تسديها الحكومات لشركات الطيران؟ هل يعني إنشاء هيئة دولية تملك القواعد الجوية ووسائلها، أو هل يعني إنشاء شركة دولية ذات رأس مال مختلط وموظفين من جميع البلاد، تشرف على تسيير هذه الخطوط.

لا مرية أن المعنى الثالث هو المعنى الوحيد الذي ينطبق عليهِ وصف «الدولي» ومع ذلك فإنهُ في حاجة إلى التحديد. هل تكون هذه الشركة هيئة تساهم فيها الدول المتحدة، كما يساهم الناس في شركة تجارية، أو تكون شبكة من الخطوط الجوّية المنتشرة فوق وجه الأرض ويُشرف عليها السلاح الجوّي الدولي — أحد فروع «قوة المحافظة على السلام» — كما يقترح هنري ولاس وكيل رئاسة الولايات المتحدة؟

ولكن على رغم المزايا الكثيرة التي تلازم تحقيق هذا المقترح ، يبدو أن الاهتمام بهِ يسير ، فليس في الولايات المتحدة من يؤيده من الكبار سوى ولاس وهو معتزل وكالة الرئاسة في ٢٠ يناير القادم . أما في بريطانية ، فحزب العمال فيها يميل إلى تأييدهِ وكذلك بعض الصحف الكبيرة . ويقال إن الحكومة معنية بهِ . ولكنَّ دوائر الطيران في بريطانية لا ترى حكمة في تطبيقه تطبيقاً عامًّا وقد تستثني من ذلك تطبيقهُ على الخطوط الجوّية في القارة الاوربية . وكندا أقلُّ ميلاً إلى تطبيقه من أميركة . أما روسيا السوفيتية فلم توضح موقفها ، والغالب أنها معارِضة .

٣ — حرية الهواء . يغلب في بعض الدوائر أن الأخذ باطلاق « حرية الهواء » هو البديل الوحيد من النظام القائم على قاعدة « النطاق الجوّي المقفل » . على أن التعبير نفسهُ قد يعني واحداً من ثلاثة أشياء . فقد يعني أولاً حرية العبور أي أنهُ يحق لطائرة تابعة لدولة ما أن تجوز هواءَ دولة أخرى دون النزول في ارضها . وقد يعني ثانياً حرية الانتفاع بوسائل الطيران كالنزول في المطارات والاطلاع على الأرصاد الجوية والاتصال اللاسلكي . وقد يعني ثالثاً حرية النقل الجوي فيؤذن لطائرة من دولة ما ، أن تنقل ركاباً أو شحناً إلى دولة أخرى أو منها أو فيها . والمعنى الثالث هو أوسعها وأحراها بأن يكون المقصود بحرية الهواءِ . وقد يقتصر على النقل إلى دولة ومنها ، دون القيام بأعمال النقل فيها .

ولكنَّ حرية الهواء بهذا التفسير الواسع ، تتصل اتصالاً وثيقاً بالسيادة في معناها القانوني ، وبالسلامة في معناها الحربي . ولذلك يحرص دعاة هذا الرأي على أن يضمِّنوا مقترحاتهم الاعتراف بحق الدولة أن تعيِّن مناطق تعدُّها لازمة للدفاع ، فيحرَّم الطيران فوقها ، ويذهب بعضهم إلى القول بأن المقتضيات العملية تقتضي ، حين تزدحم طرق الهواء ، أن تعيِّن كلُّ دولة طرقاً خاصة تجعلها مباحة للطائرات الأجنبية .

على أن المبدأ الأصيل في مذهب حرّية الهواء ، هو إطلاق التنافس في النقل الجوّي الدولي من كل قيد . والرأي أن هذه المنافسة الحرة هي خير وسيلة لنموّ النقل الجوّي نموًّا يعتمد على « بقاءِ الأصلح » أو ما من قبيلهِ في عالم الاقتصاد . ولكن هذا الإطلاق يفضي إلى مشكلات خطرة ، إن هو ذهب إلى أقصى حدوده . فإذا سيَّرت الشركات الأميركية طائراتها فوق كل قارة آسية ، والصينية فوق كل قارة أوربة ، والأوربية فوق قارتي أميركة الشمالية والجنوبية ، فالعاقبة هي منافسة غير اقتصادية ، أو هو تناحر يفضي إلى ضرورة عون الشركات من مال دولها ، وإلى المشكلات السياسية التي يحتمل أن تلابسها . (للبحث تتمة)

رحلة خابت

أما سمعتم معي صوتاً صريع النغمْ
تلفظه أضلعي منخلعات الهمم ؟

أضلعُ صدرٍ هفا
- وما علمْ -
إلى خليج الشّفا
من الندم

هناك حيث انفصم
ماضي العمُرْ
فلا أثُر !
طوى الجراحَ العدم

في صدريَ المُقلعِ
هفَّ العلَمْ
فانتشرت أضلعي
تُجري الحُلُم

أما سمعتم معي صوتاً صريع النغم ؟
وا ضجَّة المطمع من يأس شوقٍ فُطِم !

صوتَ شراعٍ وَنى
ثم انحطم
يا للعلم
أعياه هولُ الفَنا

لندن ، يوليو ١٩٣٦ **بشر فارس**

هل نجحت الحرية

في التاريخ ؟

لقسطنطين تيودوري

قال إبراهام لنكولن : « إنه من المهم أن نتساءل : هل في مكنة أية حكومة لا تملك القدر الكافي من الحرية لتعزز به شعبها أن تحافظ على وجودها وكيانها عند حدوث الطوارئ الجدية ؟ » . إن هذه الملاحظة الخطيرة التي أبداها الرئيس لنكولن تتصل بمنشأ قضية من أهم القضايا في التاريخ الإنساني، فهناك توازن بين الحرية التهذيبية والحرية السياسية والحرية الاقتصادية ، وهناك توازن بين حرية الفرد وقوة الدولة . وهذا التوازن في القوى الذي من شأنه أن يضمن استقراراً كافياً دون أن يعوق نجاح الحرية يعد من أعظم المعضلات التي لقيتها الدول منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا .

إن هناك عاملاً عظيماً يجب أن نلتفت إليه إذا تأملنا التباطؤ الظاهر في تقدم البشرية ولكن هذا العامل العظيم انعكاسات لاشعورية ذات حالات خاصة Conditioned Reflexes تسيطر على نفسية الفرد وعلى نفسية الجماعة بوجهٍ عام . ولسنا نقدر مبلغ تأثير هذه الانعكاسات في الحياة البشرية إلاَّ بتفطننا إلى أخلاق الفرد والعادات التي تتحكم في أخلاق الجماعة مبنية عليها ، مستندة إليها . ثم إذا كان التقدم البشري يستأصل خلقاً سيئاً واحداً فانه في الوقت نفسه يعرّض للخطر عشرة أخلاق على الأقل ليست كريمة . ويرجع ذلك إلى طبيعتنا السيكولوجية التي نستخدم في اصطناعها الانعكاسات ذات الحالات الخاصة بطريقة لاشعورية في أكثر الحال ، وبطريقة شعورية اختيارية أحياناً .

ولا يمكن لأي تقدم تدركه البشرية أن يدوم ويثمر ، إلاّ إذا تأصلت أصوله في الأذهان. وفي هذه الحالة تمتد هذه الأصول — بطريقة الانعكاسات اللاشعورية — إلى عدد كبير من الناس ، فيغتذون بها وينتفعون ، ويصبح التقدم حينئذٍ حقيقة محسوسة وعملاً نافعاً مثمراً . ولقد حاولت البشرية في أدوار التاريخ المختلفة أن تظفر بتقدم عظيم القدر فنجحت

في ذلك مدة قصيرة من الزمن ، ولكن سرعان ما تداعى هذا التقدم لأن جذوره لم تتأصل في عقول الناس تأصلاً . وحين كانت تعفو آثار التقدم في العالم كان ذلك التوازن القديم يعود إلى الظهور وهو أشد رسوخاً واستقراراً من ذي قبل . ومن أجل ذلك أخفق المصلحون الدينيون في بناء وحدة دينية كاملة ، ومن أجل السبب نفسه بلغ إخفاق الثورة الفرنسية التي نشبت في سنة ١٧٨٩ مبلغاً كبيراً ، فماذا أفادت الحرية والمساواة والإخاء الشعب الباريسي بعد أن قضى مئة سنة يقاسي خلالها الجور والظلم ؟ إن هذا الشعب بمعاناته العبودية وتحمله القوانين الجائرة ، فقد — من حيث لا يدري — تلك الانعكاسات اللاشعورية المنطوية على القوة الطبيعية التي تسيّر أخلاقه وتكيّف حياته بمقتضى سنة التطور الطبيعي . والنتيجة التي تنشأ عادةً من فقدان هذه الانعكاسات تفضي إلى إطلاق العنان لغرائز الحياة الحيوانية في الإنسان . ومن الطبيعي أنه لا ينتظر أن تصدر عن مثل هذه الحياة حياة اجتماعية منظمة من الطراز الرفيع . على أننا إذا نظرنا من الناحية الأخرى إلى الثورة الأميركية رأينا أن النتيجة التي أسفرت عنها كانت بعكس ذلك ، فالأميركيون في سنة ١٧٧٦ كانوا يستمتعون بحرية المساواة الشخصية أو ما يسمونه الأخوة التعاونية Co-operative Fraternity وكان من أثر الثورة الأميركية وقتئذٍ أن أيدت الأميركيين في طرائق حياتهم ووافقت على تصرفاتهم وباركت أعمال اعتدائهم . لذلك ليس من العجب ألاَّ يثير إعلان الاستقلال الأميركي وحصول الأميركيين على حقوقهم تلك الضجة المدوّية التي أثارها الفرنسيون لما فازوا باستقلالهم ونالوا حقوقهم .

وعلى الرغم من هذه الحقائق التاريخية الساطعة التي تجلت في كل من الثورة الأميركية والفرنسية ، فإن الثورة الفرنسية لم تنته بتقهقر تام . ففي ثورة تموز (يوليه) سنة ١٨٣٠ ولدت فرنسة جديدة ، ولدت فرنسة الديمقراطية . ومع أن مرمى هذه الثورة كان أقل شأناً من ثورة سنة ١٧٨٩ فإنها قد نجحت في تأييد مناهج الحياة التي كانت تسلكها الطبقة الفرنسية المتوسطة ، هذه المناهج التي ارتقت في العهد الواقع بين سنة ١٧٨٩ وسنة ١٨٣٠ . وقد أدّى هذا الارتقاء في مناهج الحياة إلى جعل المبادئ الأدبية للحرية الثقافية والسياسية سائدة في ذلك العصر .

إن الثورة الفرنسية قد وضعت حدًّا لعصر كانت فيه الحضارة مشوّشة لا تناسق فيها ولا توازن، وقد ذهب بعض المفكرين إلى أنهُ كان بالإمكان أن تقف هذه الثورة لو أن طبقة الأشراف التجأت إلى القوة آنذاك . وقد استحوذت هذه الفكرة على كثير من الطبقات

والهيئات ، وتغلغلت في الأوساط والبيئات المختلفة ، وآمن بها فريق من مفكري عصرنا الحاضر ، فأفضى كل ذلك إلى خلق المذهب الفاشستي الذي يقوم على تمجيد القوة وإعلاء شأنها وتقديس الذين يعتنقونها. ولنبحث فيما يلي هذا المبدأ القائم على تمجيد القوة لنرى صحته أو بطلانه : تساقط النظام الإقطاعي الذي كان سائداً في فرنسة في القرون الوسطى لما اعتلى لويس الرابع عشر عرش فرنسة ، فقد ركز هذا الملك جميع القوى في دار القضاء التي بناها في فرسايل ، إذ جعلها المحجة الوحيدة للطبقة الحاكمة في البلاد ، وجمّلها بأفخم الأثاث وأندر التحف والآثار ، وأسكن فيها الأسرة المالكة ومئات النبلاء وطائفة كبيرة من الجند والحشم ، وصيّرها مرتعاً خصباً لألوان الرفاهية والنعيم. فاسترعت محكمته هذه الأنظار في فرنسة وفي أوربة أيضاً إذ تجلت فيها روح الأتوقراطية — روح الاستبداد بالسلطة — بأجلى مظاهرها . فوسائل القوة التي تذرّع بها هذا الملك جعلته محاطاً بالنفوذ والهيبة . وغنيٌّ عن البيان أن هيبة من هذا النوع لا يظفر بها المرء إلاّ إذا ارتكزت على القوة والاستبداد . وقد سرى ردّ الفعل الذي أحدثته أعمال هذا الملك الاستبدادية في فرنسة وفي سائر أوربة كذلك ، وكان من نتيجة ذلك أن رأس وليم البرتقالي الذي استوى على عرش إنجلترة سنة ١٦٨٩ حركة ناجحة قاوم بها هذه الأعمال الأتوقراطية .

وبينما كان النبلاء في فرنسة منهمكين في استبدادهم بالناس واستخدام وسائل نفوذهم وهيبتهم إذ عقد وليم المذكور حلفاً أُضعف بهِ قوة لويس الرابع عشر في الحرب المعروفة « بالخلافة الأسبانية » التي نشبت بين فرنسة من جهة وإنجلترة والنمسة وبروسية وهولندة والبرتقال من جهة أخرى ، وذلك دفاعاً عن الاستقلال وعن حرية البروتستانت الثقافية في فرنسة . وقد استمرت هذه الحرب إحدى عشرة سنة ، وبعد مئة سنة تقريباً صار النظام الاستبدادي الذي اتبعه لويس الرابع عشر إلى الخراب والدمار . وربَّ سائل يسأل : لماذا لم يتذرّع أشراف فرنسة بالقوة في سنة ١٧٨٩ لقمع الثورة الفرنسية كما اعتقد بعض المفكرين فإن ذلك كان ممكناً ؟ والجواب أن نظاماً مرتكزاً على الهيبة لا يمكن أن يدوم إذا تجرّد منها ، فالهيبة التي كانت سائدة في عصر لويس الرابع عشر كانت مرتكزة على مجد عسكري ملكي فقط ، وما عتم هذا المجد أن تفكك واضمحلّ . وهكذا نرى أن الهيبة العظيمة التي كان يتمتع بها لويس الرابع عشر وينافس بها غيره من ملوك أوربة قد تحداها ملكٌ هيّن كوليم البرتقالي . حقّاً كان في مقدور أولئك الأشراف أن يحاربوا في سبيل إعادة ملك لويس الرابع عشر وفي سبيل تجديد هيبته وكرامته ، وكان في مقدورهم أيضاً أن يحاربوا من أجل القضاء على الحرية التي رفرفت أعلامها في هولندة وفي غيرها من البلدان

البروتستانتية المذهب، ولكنهم لم يستطيعوا إلى هذه الحرب سبيلاً ، إذ كان من المستحيل عليهم أن يستردوا هيبة كالهيبة التي كان يتمتع بها لويس الرابع عشر . ولكن ما كان ممكناً أن يتوقعوا الحصول عليه هو مارسمهُ لهم ميرابو : أن يقطعوا الجسر المؤدي إلى عالم ديمقراطي قبل فوات الوقت . ولو أن ميرابو زعيم الثورة وخطيبها طال عمره لتحقق ما رسمهُ لهم ولسارت الثورة الفرنسية في طريق إنشائي أوصل فرنسة إلى تلك الحرية التي نالتها هولندة بفضل انتصارها التام على النظام الفرنسي الأتوقراطي .

***

ولنستعرض الآن بعض الحوادث التاريخية، لنبرهن بها على أن الحرية إذا لم ترسخ جذورها في حياة البشر الثقافية كان نصيبها الإخفاق التام .

استطاعت بروسية في عهد فردريك الكبير أن تستمر على النظام الإقطاعي حتى الحرب العالمية . ذلك لأنها أدمجت — في عهد أبي فردريك — نظام لويس الرابع عشر في حرية هولندة الثقافية واتخذت من هذا الإدماج نظاماً للحكم سارت بمقتضاه . وكان من نتائج هذا الإدماج في عهد فردريك الكبير أن فصل العدل عن قوة الدولة التنفيذية، فكان في استطاعة المرء في بروسية — استناداً إلى ذلك — أن يقاضي الملك بدون استشارته ، في حين أن الدستور في أمريكة لم يخوّل الأميركي مثل هذا الحق .

إن بروسية في تطبيقها سياسة الإدماج استطاعت أن تنشئ خلال القرن التاسع عشر نظاماً من التقدم الثقافي كان منطوياً على طراز رفيع من الحرية ، وقد مكّنها هذا النظام من إصابة تقدم غير قليل في الحرية ، إلاّ أن انهزامها في الحرب العالمية أفقدها عنصر الهيبة الذي لازم سياسة الإدماج هذه . فالجمهورية الديمقراطية التي تأسست بعد الحرب الأخيرة على أساس الهزيمة — بعكس الجمهوريات في سويسرة والولايات المتحدة التي أُنشئت على أساس النصر — كانت في حاجة إلى عنصر أساسي من الهيبة في أول الأمر ، بل كانت في حاجة ماسة إلى من يثير عواطفها ويوقظ مشاعرها . فلو وجد من يطالب بإرجاع الملكية إليها لأدى ذلك إلى تجديد عوامل التنبيه والإنعاش التي فقدها البروسيون بسبب سقوط عنصر الهيبة في حياتهم . بيد أن الحرب العالمية أوجدت لهم بديلاً من ذلك تجربة ظهرت لأول مرة في إيطالية ، وهذه التجربة عبارة عن نظام جديد فريد يحتوي على عناصر من الهيبة تبدو من خلالها الروح الديمقراطية ، ذلك هو النظام النازي الذي تجري الهيبة في ثناياه

من مصدر مركزي واحد ثم تتفرَّع إلى شُعب تضيق شيئاً فشيئاً ، وذلك كله بأسلوب لم يسبق له مثيل .

ويجب أن نعترف هنا أن الحرية الديمقراطية قد أخفقت لأنها لم تملأ الفراغ الذي خلا بسقوط الملكية في ألمانية ، ولأنها عجزت أيضاً عن منع النظام النازي من الظهور ، وينبغي أن نتعلم من هذا كله أن الحواجز التي تعوق اطراد الحرية السياسية أو الحرية الاقتصادية أو الحرية الثقافية لا يمكن أن تزول إذا كانت هذه الحواجز تسدّ الحاجات الثقافية والسياسية في العالم وتساعد على إمداد المجتمع بقوة الاستقرار . لذلك لم يكن بالإمكان أن تُنقذ حرية ألمانية ويصان نجاح هذه الحرية فيها ، إذ لم تستطع هذه الجمهورية الظفر بهيبة واسعة كما أنها لم توفق لعقد اتحاد مع النمسة كما سعى إلى ذلك وزيرها بروننغ . ولكن إذ تزول حواجز كثيرة في آن واحد من طريق الحرية فمعنى ذلك أن عجلات الانعكاسات اللاشعورية التي تقدم الكلام عليها تقف فجأة عن العمل ولا يعود الفوز بالحرية مضموناً .

وقد أصبح من الأمور الواقعة أن ما يبلغهُ المرء من نجاح في الحرية في مختلف أدوار التاريخ إنما تعيّنهُ طبيعته السيكولوجية ، فعلى هذه الطبيعة يتوقف الشيء الكثير من نجاح الإنسان أو خيبتهِ .

***

ومما قوَّى الدعامة التي قام عليها نظام الحرية السياسية في الولايات المتحدة أن الحرية الاقتصادية والحرية الثقافية لم تكونا إبان ظهورهما في هذه البلاد من القضايا المعضلة كل الإعضال ، ذلك لأن الحواجز التي اعترضت طريق هاتين الحريتين كانت قليلة الأثر . ثم إن مسألة التدقيق في الدين وتجريده من « الطقوس » والشعائر المختلفة كانت مستحوذة على عقول الأميركيين في ذلك الوقت ، حتى إنهم لم يتطلعوا إلى الحياة العابثة التي كان يحياها الأوربيون .

وقد سهَّل ذلك إزالة الحواجز التي اعترضت سير الحرية السياسية في الولايات المتحدة ، حتى سارت هذه الحرية شوطاً بعيداً في مضمار التقدم والفلاح . ولكن الذي يدعو إلى العجب والدهشة أن مشكلة الرق التي كانت موضوع عناية رجال الدستور الأميركي حتى السنين الأخيرة ، لم تنل اهتمام أحد منهم حين ظهورها .

ولنضرب الآن مثلاً آخر نبين بهِ كيف أضرَّ الضغط المتزايد على الحرية الثقافية إضراراً

بالغاً بكل من الحرية الاقتصادية والحرية السياسية . ويدور مثلنا هذا على اليونان في العصر الكلاسيكي والعصر البيزنطي :

إن اليونان بانغماسهم في ثقافتهم الشخصية قد أضعفوا — قبل الأوان — رغبتهم في الدفاع عن استقلالهم ، وقد نتج عن هذا الارتقاء الشخصي أن صار الفرد اليوناني عبداً للسيد الروماني الفظ القاسي ، وصار البيزنطي التاعس الحظ في آسية عبداً لنظام الأتراك البربري .

وليس من الحق أن نوجه اللوم في هذا إلى بعض الشخصيات اليونانية الممتازة ، لأن اليونان كانوا مستمتعين وقتئذٍ بالاستقلال ، وما دام الأمر كذلك فإنهُ لا ينتظر أن يختلفوا في أخلاقهم عن غيرهم من الأمم المستقلة . ولكن إذا نظرنا إلى هذه القضية من ناحية أخرى رأينا أن تحرير العقل ، بمثل هذه السرعة الظاهرة ، يُفضي عادةً إلى فقدان عناصر القوة في الخلق الذي يحتقرُ فيهِ الاستقلال ، وبضياع الاستقلال قضي قضاءً تامًّا على الصفات الأدبية للثقافة اليونانية . وإننا نرى من هذه الملاحظات التي لا سبيل إلى إنكارها أو تجاهلها أن نظرية ماركس القائلة بأن الحرية السياسية من دون الحرية الاقتصادية لا قيمة لها ، بعيدة عن الصواب . وهذا ما يحملنا على القول بأن السعي الجدي لتحقيق نظرية ماركس في الحرية الاقتصادية قد أدَّى إلى هدم الحرية الثقافية ولم ينجح في إيجاد الحرية السياسية .

***

وفي ضوء الأمثلة التي أوردناها فيما تقدم نقول إن كل تقدم ناقص غير متناسق الأجزاء في الجهة الواحدة يسبب خسارة الحرية والاستقلال في الجهة الأخرى . وقد أثبتت الوقائع التاريخية والاختبارات العلمية والعملية أن أضمن وسيلة لنجاح الحرية هي أن تزول بالتدريج الحواجز والموانع التي تعترض طريقها مع الاحتفاظ التام بجميع الفوائد التي أدركتها البشرية في هذه السبيل .

ففي الولايات المتحدة مثلاً نرى أن الحرية السياسية لا تحتاج إلى إصلاح أو تحسين في حين تحتاج الحرية الاقتصادية والحرية الثقافية في هذه البلاد إلى الإصلاح والتحسين . ثم إن التوزيع الناقص للفرص التي تنهض بالحرية الاقتصادية قد أدَّى إلى الكساد الحالي في ميدان الحرية الاقتصادية ، وفي هذا الميدان يجب أن يفوز العالم بقسط أوفى من هذه الحرية في المستقبل القريب .

وفي ختام بحثنا نقول إن رأي روسو القائل بوجوب تحرير الإنسان من قيود الثقافة ليكون كاملاً، يعد اليوم رأياً خيالياً لا مبرر له في نظر العلم، لأننا نعلم أن الإنسان إذا تحرر من بعض هذه القيود سيسعى حتماً إلى تقييد نفسه بأغلال جديدة، إذ ليس في الطبيعة البشرية توازن له من القوة ما تستطيع أن تعزز به نفسها. لذلك فالعقل والخلق الأدبي ضروريان كل الضرورة لتأييد التوازن الاجتماعي وتثبيته من جهة، ولمنع المجتمع البشري من الانحطاط والتدهور من جهة أخرى.

إن علم وصف الإنسان الشامل المعروف «بالانتروبولوغيا» «Anthropology» أرانا أن كثيراً من الثقافات البشرية التي كنا نحسبها أساسية جوهرية قد انطوت على عناصر ضعيفة من التقدم الاجتماعي. وقد وقفت هذه العناصر حاجزاً ذاتياً دون التقدم العام. ولكن على الرغم من ذلك صحَّ ما ذهب إليه مفكرو القرن الثامن عشر من أن الرغبة في إدراك التقدم في الحرية كائنة في كل مكان في الطبيعة البشرية، فبشيء بسيط من التعديل في أسس أولئك المفكرين نستطيع اليوم أن نبني مبادئ الحرية على الأساس نفسه تقريباً، لأن الفرق الجوهري بين وجهة نظر أولئك المفكرين وما يجب أن تكون عليه الحرية في يومنا هذا كائن فقط في الموقف الجديد الذي أوجدته نظرية النشوء والارتقاء في هذا القرن.

ومما هو جديرٌ بالذكر في هذا الصدد أن المفكر الألماني Sessing كوَّن رأياً يمكن موازنته بهذا الرأي، إذ عالج موضوع الحرية فقال: «إن مبادئ الحرية يمكن أن تصيب نجاحاً في هذا القرن إذا طبقت في العالم كله فكرة التعليم» وإذا نحن أحللنا تطبيق فكرة النشوء والارتقاء محل فكرة التعليم العالمي لم يعد هناك فرق يعتد به بين وجهتي النظر المتقدمتين.

***

وخلاصة القول أنهُ لن يتسنى للحرية أن تدوم وتثمر إلاّ إذا ارتكزت على أسس علمية وتعليمية صحيحة، وسايرت سنة النشوء والارتقاء، ورسخت فيها جذور حية من المبادئ الأدبية الخالدة.

(القدس)

صاحب المزمار

أقصوصة للكاتب الأسباني « بلاسكو ايبانيز »

نقلها عن الترجمة الفرنسية : صديق شيبوب

كان معروفاً في الريف المحيط بمدينة بلنسية لا يجهله أحد من سكان القرى والمزارع ، وكان صوت مزماره لا يكاد يسمع في إحداها حتى يسرع إليه الأولاد وتتنادى النساء ويخرج الرجال من الحانات .

ديموني ، هذا هو : ديموني .

أما هو فكان ينفخ في مزماره متورّم الخدين ، فاتر العينين ، غير عابئ بهذه الحفاوة الشعبية كالصنم لا يبالي بما يثير حوله من إعجاب . وكان أبداً يُرى متأبطاً مزماره إلاّ إذا اشتدّ به السكر فسقط حيث هو في الحانة أو نام في أحد الأهراء فوق أكداس التبن ، فكأن مزماره عضو جديد وهبته إياه الطبيعة في طفرة موسيقية عجيبة .

وكانت النساء على سخريتهنّ بهذا الأفاق الشريد قد وجدنَ فيه كثيراً من الجمال . . . كان مديد القامة ، مفتول الأعضاء ، مستدير الرأس ، عالي الجبهة ، كثيف الشعر ، أقنى الأنف في حدبة جريئة . وكان منظره ينم عن جلال وصفاء كأنهُ أحد نبلاء الرومان .

كان « ديموني » سكّيراً . ولم يكن الفن العجيب الذي يستنطق به مزماره يثير من الاهتمام قدر ما يثير سكره العنيف في المجتمعات الكبيرة .

وكانت شهرته بالزمر تحمل جميع القرى على دعوته إلى الاشتراك في حفلاتها ، فيحضر بقامته الطويلة مشياً ، صامتاً متجهماً ، يتأبط مزماره ومعه صبي يحمل طبلاً صغيراً ينقر به

وديموني يزمر . وكان من عادته أن يختار صبية من أمثاله المشردين ، فيلازمه الصبي ملازمة ظله في غدوه ورواحه ، وفي نهاره وليله ، فلا يغادره حتى يدمن الشراب إدمانه .

لم يكن أحد في المقاطعة يجاري ديموني في فنه ، على أنه كان يكلف الذين يسرهم أن يدعوه إلى حفلاتهم مشقة كبيرة ومالاً موفوراً . فقد كان عليهم أن يراقبوه منذ وصوله إلى القرية ، وأن يتوعدوه بالضرب إذا دخل الحانات قبل قيام الحفلة ، غير أن تعبهم كان في غالب الأحيان يذهب سدى . فكم من مرة ، وهو في طواف كنسي ، عزف النشيد الوطني عند مروره بحانة القرية ، أو صلاة الموتى عند وصول الطواف إلى الكنيسة حيث يجب عزف نشيد الابتهاج .

وكان القوم يضحكون من غفلته هذه ومن استهتاره بالحفلات الكنسية ، وكان غلمان القرية يطوفون به هازلين ساخرين من تظاهره بالجد في سيره قدّام صليب القرية . وكثيراً ما رفعوا قِبَل عينيه كأس نبيذ ، فكان ينظر إليهم في خبث كأنه يقول لهم : « إلى وقت قريب » .

وكان هذا الوقت القريب كل سعادة ديموني ، لأنه يمثل له انتهاء الحفلة وخلاصه من رقابة وجهاء القرية واستئناف حريته في الحانة .

***

هناك ، بجوار الدنان الملأى بالنبيذ الأحمر القاتم ، بين المناضد المكسوّة بالصفيح عليه آثار الأكواب المستديرة ، وسط روائح الزيت والثوم والسمك المملح والسردين المشوي ، تحت سقف الحانة يتدلى منه لحم الخنزير والنقانق ، وقد تكاثف عليه الذباب . هناك كان ديموني يشعر بأنه في محيطه .

أما الحانة فكانت تحس بالزهو عند حضور هذا الضيف ، وفي إثره عدد كثير من المعجبين به حتى إن صاحبها كان يحار كيف يلبي طلب كل واحد من الجمع الحاشد ، ويسرع في ذلك . وكانت تتصاعد في جوّ الحانة رائحة الصوف وريح الأقدام ، وكان هذا الجمع الجمّ يُرى على ضوء مصباح يتطاير منهُ الدخان ، وقد جلس بعضه على المقاعد الخشبية المربعة ، وقعد بعضهُ القرفصاء ، وكل واحد ممسكٌ بيده الغليظة أسفل وجهه كأنه يخاف أن تتقطع أوصاله من شدّة الضحك .

ثم لا تلبث الأنظار أن تتجه نحو ديمو ني ومزماره .

— الجَـدَّة ، انفخ مثـلَ الجدَّة.

فلا يأبه ديمو ني في بادئ الأمر للملتفين بهِ ، ولـكنه لا يبطىء أن يتنـاول مزماره وينفخ فيهِ مقلداً صوت الجدَّات العجائز بين ضحك الحاضرين وسرورهم .

ثم يسألونه أن يقلّـد السكِّـيرة . وكانت فتاة مشرّدة تنتقل من قرية إلى أخرى تبيع المناديل وتنفق كسبَـها في شرب الخمر . والطريف أن السكِّـيرة كانت كثيراً ما تشهد هـذه الاجتماعات وتضحك قبل جميع الجالسين ، بل أكثر منهم ، حينما يقلدها ديمو ني بمزماره وهي تنادي لبضاعتها وتخاصم النساء اللواتي يقبلن على الشراء .

فإذا استنفد ديمو ني ألحـانه المرحة ومشت الخمر فيه مال إلى أنغام شجيـة ، فيصمت الحاضرون مأخوذين . وكان عندئذٍ يحـاكي زقزقة العصافير وحفيف السنابل في الحقل والرياح تداعبها ، ورنين النواقيس المتباعدة .

كان القوم عند ذلك لا يشعرون بالميل إلى السخرية من ديمو ني ومن ألحانه الجميلة ولا من الضرب الذي ينهال به ، بين حين وحين ، على الصبي الذي ينقر بطبله الصـغير ، وذلك لأن فنه المحكم قد أثر في نفوسهم الطيبة . بل كانوا يعجبون بهـذا السكّـير الذي يُشجيهم بمزماره وهو لا يتركه إلاَّ ليشتفّ الكأس في عبّـة واحدة .

ولم يكن قط يتكلم ، لذلك لم يعرف أحد من أمره شيئاً . وإنما اشتهر بأنه من مدينة « بنيكوفار » حيث يملك بيتاً قديماً احتفظ به لأنهُ لم يجد من يشتريه ، وبأنهُ باع ما ورث من والديه من أطيان ومواشٍ فأنفق الثمن في الشراب . أما أن يتعاطى عملاً ما فكلاًّ ، والف مرَّة كلاَّ . إنه ولد ليكون سكيراً ، وما دام مزماره بين يديه فهو لا يعدم الطعام . وكان ينام في آخر الليل سكران في إحدى زوايا الخانة أو في أحد أهراء القرية ، وينام الصبي عند قدميه كأنه كلب صغير ، وهو لا يقلّ عنهُ سكراً .

***

لم يدر أحد كيف تمَّ اللقاء ، ولـكنهُ كان من الواجب أن يكون ، فكان ... اتصل ديمو ني بالسكِّـيرة وتحابَّـا.

كان كل واحد منهما يسلك مسلكه في عالم السكر ، فالتقيا واتحدا ليسيرا معاً في طريق واحدة . وقد صارت المؤاخاة التي قامت بينهما إلى الحب ، فانقطعا إلى البيت الذي في قرية « بنيكوفار » يخفيان فيه سعادتهما . وكانا ينظران طول الليل إلى النجوم تضطرب في السماء من خلال الثقوب الواسعة في سقف الغرفة التي ولد فيها ديموني ، وكان البيت متداعياً . وقد حدث لهما في إحدى الليالي العاصفة أن سقط المطر عليهما من السقف فهربا من غرفة إلى غرفة حتى انتهيا إلى كهف منسي في أحد أركان المنزل نسج العنكبوت فيه خيوطه ، فأويا اليه ليزدهر بين جنباته ربيع حياتهما .

ولماذا يقبلان على الزواج وهما لا يقيمان وزناً لأقاويل النـاس ؟ إن الشرائع والتقاليد الاجتماعية لم تُسنّ لهما . يكفيهما أنهما يتحابّان ويجدان كسرة خبزٍ للغذاء وحانة ترضى بأن تسقيهما الخمر على أن يدفعا ثمنها حين يكسبان بعض المال .

***

كانت علامات التفكير تظهر على ديموني كأنَّ باباً مجهولاً قد انفتح في مجرى حياتهِ ، فأبصر منهُ سعادة عظيمة لا عهد له بهـا . لقد كان ولعه منذ حداثته : المزمار والخمر . أما الآن وقد بلغ الثامنة والعشرين فإنهُ زهد في الشرب بعض الزهد وصار يشعر بأنه يذوب ، كما تذوب الشمعة المتقدة ، وهو بين ذراعي صاحبته تلك السكيرة النحيلة الجسم كأنها الحشرة القبيحة المنظر ، السوداء الوجه من فرط ما أحرقتها نار الخمور الملتهبة في أحشائها ، تلك المخلوقة الحادة الغريزة التي تضطرب كالوتر المشدود ، التي تمثل في عيني صاحبها أبعد معاني الجمال . وكانت سعادتهما عظيمة ، وكانا لا يقنعان بالتنعم بها في البيت ، فكانا يتداعبان خارجه بين أيدي الناس ... في مجونٍ صافٍ .

وكان الحب والخمـر قد أكسبا ديموني جمالاً وقوة على حين زادا في نحول صاحبته وسواد بَشَرَتها . وكانت تعنى به كل العناية وتُهمل نفسهـا حتى إنهـا كانت ترتدي ثياباً ممزّقة .

وصارت لا تفارقه أبداً لأن شابـاً وسيماً مثله عرضة لأخطار جمة . فهي لا تكتفي بالانتقال معه في جولاته الفنية بل تبرز إلى جانبهِ وهو يسير في الحفلات الدينية ، غير عابئة بما يقال ، مسدّدة لحاظها إلى جميع النساء في قسوة تنم عن عداوة .

وقد برزت ذات مرة وعليها أمارات الحمل ، فأغرق الناس في الضحك ، حتى كادوا يفسدون مغزى الحفلة الدينية .

أما هو فكان ينم مظهره عن لذة الظفر . كان يمشي نافخاً في مزماره كأنه أنف طويل ينساق إلى السماء ، وإلى جنبه الصبي يحمل الطبل الصغير ، وإلى جنبه الآخر السكيرة وقد استدارت فارتفعت ثيابها الممزّقة وظهرت ساقاها النحيلتان كأنهما ترقصان في حذائهما الواسع ، وهما جافتان قذرتان كالنقّارة التي ينقر بها الصبي الطبل .

وقد أثار هذا المنظر اشمئزاز رجال الدين ، فحاولوا أن يحملوا ديموني على الزواج وفقاً للمراسم المتبعة . فأبى ، فمنعوه دخول الكنيسة والاشتراك في الحفلات الرسمية ولكنهم لم يستطيعوا أن يستغنوا عنهُ أيام الطواف في المدينة .

***

على أن السكيرة لم تلد ، أعسرت فانتُزع الجنين انتزاعاً ، فقَضَت بمرأى من عيني ديموني المذعورتين . ولم يدرِ ، وقد رآها تلفظ نفَسها الأخير من غير توجع ولا حشرجة : أذهبت هي إلى غير رجعة أم نامت كما كانت تنام عند قدميه إعياءً وسكراً ؟ .

كان للنبأ دويٌّ عظيم في قرية « بنيكوفار » فاجتمع الأهلون على باب البيت القديم ليروا السكيرة مدرجةً في النعش وديموني بجانبها يبكي وقد انحنت قامته الطويلة وتهالك رأسهُ كأنهُ ثور حزين .

ولكنّ أحداً لم يتواضع فيدخل البيت . ولم يمش في الجنازة غير عدد قليل من أصدقاء ديموني المشردين مثله .

وكان هؤلاء قد أمضوا ليلاً ساهراً بجانب الجثة . وكانوا في كلّ ساعة يذهبون إلى الحانة فيملأون قارورة خمراً حتى نال منهم الشراب فناموا . ولما أشرقت الشمس وأرسلت أشعتها من خلال ثقوب السقف استيقظوا فوجدوا أنفسهم نياماً حول الميتة كما كانوا يفعلون في بعض الليالي وهم مطرّحون سكارى لا يلوون على شيء .

أية دموع ذرفوا عليها ؟ .. إنها تنام الآن في نعشها ، نعش الفقراء ، لا تستطيع النهوض لتأخذ قسطها من لهو مجلسهم . تعساً لها من حياة ... أهذه نهاية كل حيّ ؟ ..

وقد بكى هؤلاء السكارى طويلاً . وكان الحزن والسكر يعتلجان في نفوسهم وهم يحملون

النعش إلى المقر الأخير . وقد شهد كل أهل القرية الجنازة من بعيد . وكان النساء يُغربن في الضحك من المنظر العجيب . كان أصدقاء ديموني يتمايلون يميناً ويساراً والنعش فوق أعناقهم يهتز كأنهُ باخرة عتيقة وسط عاصفة هوجاء . وكان الغلمان يطوفون بهم كعادتهم في الحفلات ، وكان الناس يضحكون كأن الجنازة مهزلة وكأن الفتاة ماتت شهيدة نشوة عنيفة .

أما ديموني فلم يكن قد استفاق بعدُ من سكرة أمس ، فكانت دموع الخمر تمتزج بدموع الحزن على رفيقة عمره ونديمة شرابه . وبعد أن أودعها اللحد ذهب إلى الحانة وتناول الأقداح بيده ، وكانت لم تنفض بعدُ أثرَ التراب المهيل .

***

تغيرت حال ديموني منذ ذلك اليوم . ودَّع الأسفار البعيدة والليالي الجائشة في الحانات . لقد اعتزم ألاّ يغادر قريته أو يشترك في الحفلات الدينية .

وتوكيداً لاعتزامه أطلق الصبي من خدمته والتزامه . فقد كان يؤمل أن يرزق من صاحبته غلاماً يرافقه في غدوه ورواحه بدلاً من هذا الأجير . أما الآن فهو وحيد . هل يشعر بالسعادة حيناً ليصير إلى هذه المأساة ؟ . حالتان لم يعرفهما قبل أن يحب السكيرة . فلم يجد غير الشراب صديقاً ومعزياً .

كان يلزم داره طول النهار ، فاذا جاء الليل تسلل إلى خارج القرية كأنهُ لص حتى يصل إلى المدفن ، فيدخله من ثغرة في أحد جدرانه .

وكان العمال عند عودتهم إلى القرية في المساء يسمعون أنغاماً ناعمة شجية تتصاعد من بين القبور ، فينادون :

أهذا أنت يا ديموني ؟

فتصمت الموسيقى في وجوه هؤلاء الجبناء الذين إنما يتكلمون ليستروا جَزَعهم ورعبهم .

فاذا ابتعد وقع خطاهم وخيمت السكينة على الحقول ، استردَّت الموسيقى أنغامها في جوف الظلمات كأنها إرنان طفل ينادي أمّاً لن تعود .

الحيوان المنسي

للأب أنستاس ماري الكرملي

توطئة

الغاية من وضع هذه المقالة إرشاد القارئ إلى الألفاظ العربية لأسماء حيوانات مذكورة في تآليف الغربيين ، لكنها غير منصوص عليها في مصنفات من تقدَّمنا ولا مذكورة فيها بالأسماء التي نتعرَّض لها هنا .

والذي أهاب بنا إلى هذا العمل ، أننا وقفنا في أسفار الأجانب ، وتآليف أدبائنا على مقالات شتى ، يذكر فيها أصحابها : أن العرب أمعنوا في أصقاع آسية وإفريقية وأميركة منذ عهد واغل في القدم، من غير أن يدروا كيف تم ذلك ولا كيف بلغوها ، مع ما كان لديهم من الوسائل البسيطة الضعيفة التي لا تمكنهم من تحقيق أمانيهم . وقد أيد أصحاب تلك الآراء ما أتوا به من أدلة ليست بسهلة التجريح ولا بهينة النقض ، ولا يمكن أن تنكر .

فجئنا نحن لنؤيد تلك الأقوال ونسندها بما بدا لنا من أسماء بعض الحيوانات التي لم يتمكن العلماء من معرفة معناها الأصلي، كما لم يتمكن أرباب تلك الأنحاء من شرح سبب تسميتها . فنلقي هذه الدلو في الدلاء دعماً لما ذهبوا إليه . أي أن العرب رحلوا إلى تلك الأرجاء منذ أقدم الأزمنة ، فوضعوا لها تلك الأسماء التي لها معنى يؤيد سبب وضعها في العربية ولا معنى لها في لغى أهل البلاد الموجودة فيها تلك الحيوانات . فنقول :

١ — « الكميشيّ أو الشاجَّة » : في أميركة الجنوبية طائر غريب الأمر ، وعجيب الشكل ، اسمه العلمي Palamedea cornata أو Annima وكثيراً ما يدجنه أهالى تلك الأرجاء الوطنيون ليودعوه حراسة الدجاجيات من مخالب الجوارح ومن أنياب الضواري فيدفع عنها عواديها . وهو يمتاز بقرن طويل مزجج يزين رأسه ، وهو في الوقت عينه آلة يدافع بها عن نفسه وعمن يناضل عنه . وله في كل من جناحيه مهماز مسنن للغاية عينها . وأما منسره ورجلاه وساقاه فتشبه ما كان من هذا القبيل في الدجاجيات . ويتصل بالبط والوز من جهة بنية خلقه ، واسمه بالإنكليزية Kamichi .

ومن أسماء الكميشي : (الناعق الأقرن) وهو ترجمة الانكليزية Horned Screamer والشاجة . وسمي (ناعقاً) لأنه ينعق بعدوه إذا ما رآه قادماً إليه، فان ارتدع فبها ونعمت ، وإلاَّ فإنه يطعنه بقرنه المسنن ويورده حياض المنايا .

واسمه الثاني (الكميشي) مشتق من الكمش، يقال : كمش فلاناً بالسيف : إذا قطع أطرافه فهو فعيل بمعنى فاعل، وزيدت الياء في الآخر للمبالغة كما قالوا : أحمر وأحمري، ديار ودياري، دوار ودواري ، إلى نظائرهنَّ . وذلك لسبب فتك هذا الطائر بقرنه فهو كالسيف القاطع .

واسمه الثالث : الشاجة ، اسم فاعل من شج رأسه يشجه : جرحه وكسره . وزيدت التاء للمبالغة أيضاً كما قالوا : راوية والأصل راوٍ . وبالانكليزية Chaja وبلسان العلماء Chauna Chanaria وهذه اللفظة مترادفة لما ذكرناه في صدر هذا البحث .

٢ — ﴿ الكانس ﴾ : واسمه بالإنكليزية Kanchil قال لغويوهم : إن هذا الاسم ماليزي الوضع، أما نحن فنراه من نجار عربي هو كانس ، من كنس الظبي يكنس (بالكسر) كنوساً دخل كناسهُ . وهو ظبي ظريف الشكل رشيق القوام سريع الحركة ، اسمهُ العلمي Tragulus Pygmaeus أو T. Kanchil ويرى في جزر زابج أي في جاوة وسومطرة وما جاورها من الخُرص (أي جزر البحار) ويحتال على صائده بأن يكنس في كناسهِ حالما يراهُ مقبلاً إليهِ ليصطاده .

٣ — ﴿ كانّ الجرو أو كانّ الأجرية ﴾ : كانّ الجُرْو ، بكاف مفتوحة يليها ألف فنون شديدة وهي مضافة إلى الجرو المثلثة الجيم، وهو صغير كل شيء حتى الحنظل والرمان والبطيخ والخيار ، وغلب على ولد الكلب والاسد . ومعنى (كانّ الجرو) مخفي ولده الصغير ، وذلك أن لهذا الحيوان جراباً في أسفل بطنهِ يخفي فيهِ أجراءَه كل مرة يرى خطراً على نفسهِ ولاسيما على فراخهِ ، وهذا يرى في الأنثى فقط . ويكتب اسمهُ بالإنكليزية هكذا Kangaroo وبالفرنسية Kangouroo أو Kangourou وسماه بعض كتّابنا المعاصرين (القنقر) وزان جعفر ، من باب التعريب . ونحن نفضّل العودة إلى الأصل العربيّ وهو واضح كل الوضوح ويقال في جمعه : (كوانّ الأجرية) أو (كانّات الأجرية) واسمهُ العلميّ Macropus Major وموطنهُ أسترالية ولا يرى في غيرها من البلاد . ونكتفي بهذه الكلمة ، لأن غايتنا ذكر الأسماء دون وصف الحيوان، ومن أحبَّ التوسع فليراجع الكتب الموضوعة في علم الحيوان.

٤ — ﴿ القهقة ﴾ (١) القهقةُ ، وبالإنكليزية Kaka قيل في أصل الكلمة إنها من اللغة

---

(١) راجع الذيل

الماورية ومعناها الببغاء ، وقال الإنكليز : إنما سمي بحكاية صوته فكأنهُ قهقه . فقد يكون ذلك وقد يكون أنه سمي بالقهقهة من العربية ، فهذا الفعل معروف في لغتنا وغير معروف في لغى الغير ، واسمهُ العلمي نسطور الجنوبي Nestor Meridionalis وهو ضرب من الببغاء موطنهُ نيوزيلندة . والقهقه الجبلي واسمهُ العلمي نسطور الجليل N. Notabilis معروف بحرصهِ على أكل اللحم . ولذا يتهجم على الحملان والخنانيص ليفترسها ، ولهذا أيضاً يطارده أهل تلك البلاد درءًا لكل ضرر عن صغار الحيوانات من ذوات الأربع .

٥ — « القحقاح » : القحقاح وبالإنكليزية Kahkapo وبلسان العلم Strigops Habroptilus طائر من جوارح الليل يشبه الببغاء كل الشبه ، وموطنهُ نيوزيلندة يقضي نهاره في النقوب ويسعى لرزقهِ في الليل ، ولون ريشهِ كلون ريش البوم وكذلك ظاهر خلقهِ . وأجنحتهُ عريضة ، وهو لا يستطيع أن يطير مدة طويلة . ومن أسمائهِ (البوم الببغاء) و (ببغاء الليل) و (قهقه الليل) . والقحقاح مشتق من العربية ، من قولهم : قحقح القرد : إذا ضحك . وصوت هذا الطائر في الليل يشبه قحقحة القرد ، ومنهُ اسمه .

٦ — « القبع » القُبع كزفر هو الذي يسميهِ المصريون (أُرنب هنديّ) أو (رومي) وبالانكليزية Guinea Pig وبالفرنسية Cobaye وبلسان العلم Cavia Cobaya واللفظ العربي من القبوع ، لأنهُ كثير القبوع أي النخير وهو صوته وإن لم يكن شديداً كقبوع الخنزير (المقتطف ١٠٤ : ٢٠٠)

٧ — « الجوب » : ظبي موطنهُ غربي إفريقية ، اسمهُ الانكليزي Guiba أو Guib والعلمي Tragelaphus Scriptus وهو مخطط الجلد تخطيطاً غريباً ، فانك ترى عليهِ نكتاً وجدداً حميراوات ، على مفترشٍ أصحر . ومن أسمائهِ (الظبي المكتَّب) أي المخطط خطوط الكتب . وأما اسمهُ (الجوب) فمن العربية ، من جاب الأرض يجوبها جوباً : إذا قطعها ، لخفة تنقّله من أرض إلى أرضٍ بسرعة مدهشة .

٨ — « القاهي أو القاهة » : (القاهي) أو (القاهة) قرد طويل الأنف حديد الفؤاد اسمهُ الانكليزي Kahau أو Kaha واسمهُ العلمي Semnopitecus Nasalis موطنه برنيو من جزر أرخبيل الصُنْد . والغالب على لونهِ الكبدة اللامعة ، ولون بطنه وكتفيهِ وجانبي هامتهِ أصفر ذهبيّ وأعلى رأسِهِ ورقبتهِ أسمر . ومن أسمائهِ عند الانكليز ما معناه القرد المخرطم : Proboscis Monkey . ويقولون : إن اسمهُ مأخوذ من حكاية صوتهِ . والذي عندنا أنهُ من أصل عربيّ صميم ، فقد قال اللغويون في تفسير القاهي : الحديد الفؤاد المستطار أي المُسْرع الجري . وهو كذلك .

٩ — ﴿ العداء ﴾ : العَـدَّاء من ظباء إفريقيـة العظمى ، وهو مشهور بشدة عدوهِ واستطارتهِ ، ومنهُ اسمهُ العربيّ ، وباللاتينية Addax وبلغة العلماء Hippotragus, or Oryx, Nasomaculatus أي الأرخ المبقّع الحَـظم . وهو ملويّ القرنين ، وكان يعرفهُ الأقدمون . ويظن لغويو الإنكليز أن اسمهُ إفريقي الوضع ولم يعرفوا أنهُ من العربيـة (وراجع المقتطف ١٠٤ : ١٩٩)

١٠ — ﴿ القموص ﴾ : القَـمُـوص من أجمل الظبَـاء وأبدعها خلقة وأسرعها حركة واستطارة . واسمهُ واضح الأصل العربيّ ، وهو فعول من القمَاص كَسَـراب وغراب ، وهو الوثب المشهور بهِ هذا الحيوان الظريف الرشيق . ووُزنة فعول للمبالغة في وثبهِ . واسمهُ بالفرنسية والإنكليزية واحد Chamois وبلسان العلم Rupicarpa Tragus ويُـرى على رؤوس الشوامخ من جبال أوربة كالألب والبِـرَانس وما ضاهاها . والصيادون يفتخرون بصَـيْدهِ ، لأنهم لا يحصلون عليهِ بسهولة (راجع المقتطف ١٠٤ : ٢٠٠) .

١١ — ﴿ البواع ﴾ : البَـوَّاع ثعبان هائل العظم يسمّيهِ الإنكليز والفرنسيون باسم واحد Boa . ويقول الأولون إن الكلمة من Boa اللاتينية وهو ضرب من حيَّات الماء ، ولعلَّ أصلها Bos وهي الثور لعظم خلقها . وأما الآخرون فيقولون إنهـا من اللاتينية Bos ومعناها القُـلْـب Coluber وهي الحُـفَّـات أيضاً ، وموطن البوَّاع أميركة الجنوبية والوسطى وجُـزُر الأنتيـل . والاسم يشمل البواع العَـصَّـار ، وبلسان العلم Boa Constrictor والبوَّاع الأنبراذور B. Imperator ويكون في المكسيك ، والبواع الفارس B. Eques ويكون في بيرو . ويبلغ طولهُ أكثر من ستة أمتار ، وطعامهُ صغار ذوات الثديّ ، فهو يهجم عليها ويلتف عليهـا التفافاً حتى يعصرها عصراً فتختنق . وهو مولع بنوع خاصّ بصغار القوارض فيؤدي للزراع خدمة صادقة . ولا يتعرض للإنسان البتة (راجع المقتطف ١٠٤ : ٢٠٠)

١٢ -- ﴿ الشعاب ﴾ : الشعَّـاب ، طائر هو القرَّاع والنقَّـاب والنقاب والنقَّـار ، مضافات إلى الخشب ، وأكثر ما يرى في أميركة وهو الأحمر البطن ، واسمُـهُ الشعَّـاب وبالإنكليزية Chab للقرَّاع الخاص بأميركة ، والعلماء لا يعرفون أصل هذه الكلمة . وعربيتها واضحة تفقأ حصرماً في عين المنكر لهـا ، وهي من شَـعَـب الشيء : صدمهُ . وهو يشعب خشب الأشجار ليستخرج ما فيها من الدود والهوام المختلفة ، واسمهُ العلميّ Melanerpes Carolinus أي القَـرَّاع ، والشعَّـاب الكاروليني نسبة إلى كارولينة من ديار أميركة .

١٣ — ﴿ القلب ﴾ : القُـلْـب ، بضم القاف ، هو على ما في كتب متون لغتنا : الحيَّة البيضاء ، ولم يزيدوا على هـذا القَـدْر ، وأظن أن هذا الحرف ينظر إلى اللاتينية Coluber

أو إلى مؤنثها Colubra بمعناها، وبالفرنسية Couleuvre وبالإنكليزية Common Snake وهي حيَّـة بيضاء لا تؤذي، وهي كثيرة الوجود في منازل الأهلين في العراق، لكن الناس يهابونها لجهلهم حقيقتها ويخافونها خوفاً عظيماً، لظنهم أنها سامة وقتَّالة. وقد قبضت على كثير منها، فهي تعض بفمها (٢) لكنها لا تؤذي لعدم وجود ناب فيها. والبغداديون يسمونها (غزالية) نسبة إلى الغزال للونها الأبيض الغزالي. وأما القلب فاسمها العربي الفصيح القديم ولا بد من أن الأجانب اقتبسوها منـا أو أننا نحن اقتبسناها منهم بحذف الهجاء الأخير من اللاتينية (٣)

(الذيل)

(١) القهقه، هنا فعل ماض مبني على الفتح، وقد عد هنا اسماً ودخلت عليه أداة التعريف. ولا غرابة في هذا، فقد ورد مثله في كثير من كلام الاقدمين منا. فقد ورد عنهم أنهم قالوا: القال والقيل، مبنيين على الفتح: الاول فعل ماض معلوم والثانى فعل ماض مجهول. وقيل غير هذا القول، لكن المشهور ما أوردناه هنا وهو الغالب في آرائهم.

ولا عجب في دخول (ال) على الفعل، فقد قال السلف: الكنتي (وزان الكردي) والكنتني (بزيادة نون بعد التاء المثناة الفوقية) وهو أغرب للكبير العمر، وهو منسوب في كلا اللفظين نسبة يندر ورود مثالها. قال الشاعر:

وأصبحت « كنتياً »، وأصبحت عاجناً   وشر خصال المرء « كنت » وعاجن

وهو الذي يقول « كنت » في شبابي كذا وكذا. و (كنت) الواردة في العجز منونة مرفوعة.

وقالوا: « اليلمعي » بياء النسبة في آخر المضارع « يلمع » من لمع يلمع. ثم قلبوا الياء ألفاً فقالوا: « ألمعي » والاصل ما ذكرناه وقالوا: « اليرنأ » وهو ماض بصيغة المضارع المعلوم وهذا أعجب وأغرب. قال ابن جني: « وقالوا يرنأ (زنة بفتح ويفتح الآخر) لحيته: صبغها باليرنأ. بضم الياء المثناة التحتية، وفتح الراء وشد النون المفتوحة. وفي الآخر همزة مكسورة). وقال: هـذا يفعل (بالفتحات وسكون الفاء) في الماضي. وما أغربه وأطرفه! اه (عن اللسان في ز ن أ)

وقالوا: الـكان كان مبنيتين، لنوع من الغناء في عهد العباسيين. الى غير ذلك.

(٢) كنت أقمت في جبل الكرمل سنة ١٩٢٤ و ١٩٢٥ وأذهب كل صباح الى دير الكرمليات اليوسفيات في عسفيا من قرى ذلك الطود. ولاحظت فى صباح ٧ مايو (أيار) من سنة ١٩٢٥، أن الراهبات لا يدخلن قاعة الاكل، صباح ذلك النهار، وهن خائفات مذعورات، فسألت عن السبب، فقيل لي: إن حية عظيماً قد دخل القاعة، ولا تجرؤ واحدة منهن على أن تدخل فيها. فقلت: علي بهراوة، فأعطيتها.

ولما ولجت القاعة، وأنعمت النظر في رأسه، وجـدته مفلطحاً، وهو علامة على أنه حفث لا أفعى. فذهبت اليه وقبضت عليه من رقبته وغمزتها غمزاً وقست طوله فاذا هو متر و ٧٥ سنتيمتراً، وغلظه فاذا قطره ثلاثة سنتيمترات غزالي اللون. ولما أمسكته التف علي ساعدي التفافاً شديداً وكان يعصره عصراً. فلما رأتني الراهبات أخذن يصرخن ويولولن. فقلت لهن: لا تخفن، فهذا حفاث لا أفعى، وهو ينفخ ليخيفني ولست ممن يقعقع له بالشنان، فلا خوف علي ولا عليكن. ثم وضعت رأسه في فيَ، لأبين لهن أن لا خوف علي منه ولا ضرر. فكان إشفاقهن علي أعظم واستطرن جميعهن. ومن بعد أن بقي ملتفاً على ساعدي ساعات، أخذت فهراً وشدخت به رأسه فمات، ولم يقع ما يسوء أحداً.

(٣) إن اعتبرنا القلب من اللاتينية، بخلاف ما ذهبنا اليه، فتكون عربت أولا بصورة (قلوب)، ولم تكن بصورة (قلب) المفردة. ثم عدت جمعاً ومفردها (قلب) بالضم من باب الوهم، كما قالوا غرش أو قرش مع أن الاصل المعرب هو غروش أو قروش أي Groschen الالمانية.

التكيف الاقتصادي

لسعد ابراهيم النمرى

التكيف الاقتصادي من القضايا الاقتصادية التي تكون جزءاً من مادة علم الاقتصاد وتستلزم جهداً وعناءً في التفكير .

والاقتصاد علم اجتماعي يبحث في أعمال الإنسان الصناعية . ويستخلص من هذا أن علم الاقتصاد يتناول أموراً ثلاثة ، هي الإنسان ونظام العمل والعلاقة بينهما . أما البحث في الإنسان وطبيعته فذاك من اختصاص علم النفس الاقتصادي . وهو لا يختلف عن علم النفس العام إلاّ في أنه يعني بتطبيق علم النفس على الاقتصاد أو المعاش . ولست أقصد التوسع في هذا الموضوع ، ولكني سأقتصر على ذكر الشيء اللازم لموضوعنا ، فأقول :

في الإنسان جملة دوافع أو غرائز تسيره وتتفاعل فيه ، أهمها ما يلي هذا :

١ — غريزة التسامي : وهي التي تبعث في الإنسان الرغبة في السيطرة والزعامة والقوة .

٢ — « الحيازة : وهي تدفع الإنسان إلى الحصول على الثروة والغنى .

٣ — « العمل : وهي تسوق الإنسان إلى إظهار كفايته وابتكاراته .

٤ — « الحنوّ : وهي تحمله على إظهار اللطف والعطف والبذل والخدمة سواء لأسرته أو بيئته .

٥ — « الاجتماع : وهي التي تجعل الإنسان يأنس بأخيه الإنسان ويشعر بشعوره .

٦ — « الإذعان : وهي التي تجبر الإنسان على الإذعان للواقع أو تجعل العمال ينقادون للزعماء .

٧ — « الجنس : وهي أقوى الغرائز وأفعلها فيما يظن .

٨ — « المنازعة : وهي سبب الأحزاب في النظام القائم .

٩ — « التفكير والاستطلاع : وهي التي تؤدي إلى الاكتشاف والاختراع والتنظيم

١٠ — « الخوف : وهي التي تهاجم التاجر فيحمل همّ الخسارة ، والعامل فيحمل همّ الفصل من الوظيفة .

وأهم خصائص هذه الغرائز أو الدوافع أنها تولد مع الإنسان على درجات متفاوتة، وأنها تؤثر فيه فتجبره على نوعٍ ما من السلوك، وأنها تتحوّل وتنشأ، وأنها تتشابك. ولهذا لا بد أن ينظر إليها نظرة شاملة لفهم السلوك الاقتصادي للإنسان بوجهٍ عام.

فماذا نعني بالتكييف الاقتصادي؟

نعني بالتكييف الاقتصادي التوفيق بين طبيعة الإنسان والنظام، ولإيضاح المقصود بهذه اللفظة لا بدَّ من بعض الشرح.

تحيط بالإنسان بيئة اقتصادية هو جزء منها، وفي هذه البيئة يصرف أموره للحصول على الثروة واستهلاكها إشباعاً لرغباته وحاجاته. وتظهر ميول الفرد وأفكاره وأعماله من تصادم طبيعة البشرية والبيئة التي يولد فيها المرء. وهنا تلتقي الطبيعة البشرية بالبيئة، فإما أن تندمج فيها وتستسيغها وإما أن تنفر منها وتسعى لهدمها. وفي هذا التصادم يجري تغيير في الطبيعة البشرية قد نسميه « تضارباً داخليًّا » فأحدنا يحب أن يلهو ولكنهُ يقبل على إتمام ما يجب عليه، وآخر يتهافت على جمع المال ولكنه يجود بسخاء لمساعدة مشروع خيري، وآخر موظف كبير يؤثر أن يرقي شخصاً ما أكثر كفاية من قريبه، وآخر يحب أن ينتقد القادة أو الزعماء فيضبط نفسه ليتهيأ له البقاء في العمل أو الترقي فيه. والخلاصة أن بعض الميول يموت جملة وبعضها يعيش والبعض الآخر يتحوَّل ويتجه اتجاهاً جديداً. إن هذا الصراع بين الميول الغريزية مستمر، ونتائج هذا الصراع وطرائق التحكم فيه تقودنا إلى تحليل المسلك الاقتصادي للإنسان. إن نتيجة الصراع هو تكييف طبيعة الإنسان الأصلية للبيئة الاقتصادية أو التوفيق بين إظهار الميول الغريزية وكبتها. ففي البيئة الاقتصادية تجد مطامح الإنسان فرصاً للظهور. وفي الوقت نفسه يكون الحد من هذه المطامح شاملا. ومن هاتين الناحيتين نشأت مدرستان للفكر: الأولى تقول بلزوم تغيير الطبيعة الإنسانية، والأخرى تقول بوجوب تغيير النظام الاقتصادي. وبكلمة أوضح إحداهما تقول إن الطبيعة البشرية تحتاج إلى تهذيب وضبط وإرشاد وتوجيه حتى تلائم النظام. والأخرى تقول إن النظام الاقتصادي يحتاج إلى تحويل يلائم الطبيعة الإنسانية. ولكل من هاتين النظرتين فائدتها العلمية، ولكن كلتا النظرتين غير صواب، لأن كلاً منهما تبسط المسألة وتهوّن من شأنها فتبعدها عن إمكان الحل. والرأي الصائب هو التوفيق بين هاتين الفكرتين، فالتحسين يجب أن يتناول الطبيعة الإنسانية مرةً والنظام الاقتصادي مرةً أخرى. وأكثر الأحيان يتناول الطبيعة والنظام معاً. وهذا ما أعنيه بالتكييف الاقتصادي.

والتكييف الإنساني أو النفساني يتم بطرق متعددة ، ولكنّ أهم أنواعه خمسة :

١ — الترويض — ويقصد بذلك ضبط النفس وتعويدها السير بحسب مقتضيات النظام الاقتصادي، ولولا هذا الضبط لما تقدمت المدنية هذا الشوط البعيد . إن هذه الفكرة واضحة تمام الوضوح في ما كتبه العالم النفسي المشهور ثورندايك فاسمعه يقول : « إن الحياة التي تفرضها الطبيعة الأصلية في الإنسان ربما كانت شبيهة بحياة الذئب أو القرد أكثر مما هي شبيهة بالحياة الحاضرة نتيجة للفنون الإنسانية والعادة والتفكير — تلك التي تظهر في اللغات والآلات والبناء والكتب والعادات . إن الطبائع الأصليَّة في الإنسان لم تكن صحيحة من قبل ، وليست هي صحيحة الآن ، وربما لا تكون صحيحة في المستقبل . وبهذه الطبائع وحدها لا يشعر الإنسان إلاّ بحاجات قليلة في الحياة، وأقل منها ما يتوفر للإنسان إشباعهُ . الإنسان في الوقت الحاضر متمدن عاقل إنساني لأنه غيَّر في الماضي الأشياء إلى أشكال أكثر فائدةً لنفسه وغيَّر أجزاءً من طبيعتهِ الخاصة إلى صفات أكثر فائدةً للإنسان بمجموعه . ولهذا فالإنسان يغيِّر نفسه دائماً لمصلحته . إن طبيعته غير مستقيمة في نظره . ولكن شيئاً واحداً جمَّل حياته هو القدرة على جعل تلك الطبيعة أفضل مما هي عليه الآن، إن السيطرة على هذه الميول الأصلية تحتاج إلى استثمار الميول النافعة والاحتراس من الميول الضارة . إن الدوافع الطبيعيَّة والشهوات الإنسانية يجب أن تُطوَّع وأن تُرقَّى بعادات الحياة المتحضرة وفنونها وعلومها، ولكن كل جزء من هذه الفنون والعلوم خلقتها قوى كامنة في الطبيعة الإنسانية . ولا يمكن الركون إلى الغرائز بتأليف عادات مستحبة إلاَّ بتأثير ضغط اجتماعي قوي، بحيث إن حاجات الفرد تندمج في حاجات المجموع » . ومعنى هذا أن الإنسان يكيِّف نفسه لمصلحة المجتمع، ومفاد هذا أنهُ لا بد من حدوث بعض الضرر النفسي للافراد ولكنهُ ضرر لازم لسير الحضارة .

٢ — القضاء على الدوافع الضارة — وأهم طريقة لإزالتها هي الإهمال . فالكره والحسد والطمع والقسوة والاضطهاد والمنازعة تتسنى إزالتها إلى حدٍّ كبير . ولا ريب أن روح المزاحمة قد تؤدي إلى تخاصم نفعي خسيس . وبذلك يمكن إحلال التساند من محل المزاحمة للمصلحة المشتركة على أننا نجد أشخاصاً كثيرين في هذا العالم قد تبدَّلت طبائعهم ، فمنهم من مات فيهم الشوق إلى اللعب والمرح أو مات فيهم الحنوّ أو انتفت عنهم غريزة الحيازة أو الغضب أو التفكير ، وعلى هذا فإنه بالقضاء على الدوافع الضارة لا بُدَّ من القضاء على بعض الصفات المستحبة في الإنسان . ولكن البيئة يجب أن تطرح الدوافع الوحشية فقط ، تلك التي لا تلائم روح

العصر والحضارة ، وأن تستثمر الطبائع الممتازة في الجهد الاقتصادي.

٣ — تحويل الميول — وأقصد بهذا الانتفاع بالغرائز الفعّالة في أعمال نافعة، فبدلاً من إماتة هذه الغرائز الخطرة يجب تحويلها إلى اتجاهات مفيدة . من هذه الغرائز غريزة الجنس، وأبرز المفكرين الذين أشبعوها بحثاً هو فرويد . ولكن فرويد نفسه يقول : « إن الدوافع الغريزية تتحوّل من هدفها الجنسي وتسير نحو غايات اجتماعية عالية غير جنسية » . أي أن الغريزة المتدفقة يمكن تحويلها إلى اللعب أو الفن أو الدين . وقد قال وليم جيمس : إن حب الحرب متأصل في الإنسان ، ولكن يمكن إيجاد الوسائل التي تقوم مقام الحرب . فالإحساس بالعظمة والمجد والبطولة يمكن أن يستبدل بهِ شعور الكرامة في ميدان الاختراع أو تحمل التبعات في ميدان العمل أو الترقي من طريق إجادة العمل أو البروز في الألعاب الرياضية. حتى لقد ذهب بعض المفكرين إلى القول بأن «وراء الشر قوة» لايتعذر استخدامها والاستفادة منها بواسطة التثقيف والتعليم .

٤ — التسويغ — وأعني بهِ استخراج الأسباب بعد الانتهاء من عملٍ يرغب المرء في إنجازه . أي أن يفعل الانسان ما يشاء ثم يسعى لتفسير ذلك تفسيراً مقنعاً لنفسه ولغيره . مثال ذلك : أن الزعيم يطلب من الشعب البذل والاخلاص في قضية من القضايا فيلتف حوله دون أن يدرك القضية نفسها، فبعد أن يسلم الناس تسليماً أعمى بصدق القضية يبدءون في بحث الأسباب التي حملتهم على التشيع لها . وهنا نستطيع أن نثبت شيئاً يجرى عليه إجماع الهيئة البشرية . ذلك أن الجماعة تعد الشيء المكروه غير صحيح والشيء الجديد غير مقبول،لأنهُ يخالف ما تعودتهُ . وإذا اعتقد الانسان شيئاً تؤمن بهِ الجماعة كان من العسير عليه أن يخرج عن حكم المألوف . وكذلك يود الشخص المتطرف أن تقوم ثورة لأنهُ يرى أن النظام الرأسمالي كله مساوئ وليس فيه عدالة .إن اعتقاد الناس من هذه الناحية أمرٌ لا يرتكز على التفكير أولاً . فاذا أخفق عامل أو صانع أو موظف في عمله فإنه لا يقر بعجزه بل يسعى إلى الإنحاء باللوم على غيره، ويجب أن يقنع نفسهُ بأن الملابسات هي التي عاكسته، كأن يقول إن رفقاءه الموظفين أرهقوه بالعمل أو تدخلوا في شؤونه أو أزعجوه، ولذلك لا يستطيع أن يقوم بالعمل . والرئيس يفرض سلطته على مرءوسيه،لأنهُ يعتقد أنهم لا يتبعون النظام، على حين أن قصده الأول إثبات سلطته.

يحكى أن أحد الضباط جاءَ إلى اللورد كتشنر وهو في حرب جنوب إفريقية يشرح لهُ الأسباب التي حملته على عدم تنفيذ أمر عسكري . فأجابه كتشنر : « إن الأسباب التي

ذكرتها هي أحسن أسباب سمعتها في حياتي، ولكن اذهب الآن ونفذ الأمر».

ويمكن أن يقال إن الشخص إذا أراد اتباع ميوله أحاط نفسه بأسباب وفروض تسوّغ عمله وأظهرها بأشكال تلائم طبيعته. ففي ميدان الاقتصاد نجد التاجر الذي يحس احتمال هبوط السعر في المستقبل ويخشى الخسارة يخفض الأسعار لينفد ما عنده من البضائع المكدسة، ثم يقول إنه يحارب جماعة المستغلين. والعامل الذي يخشى ضياع وظيفته يشايع فكرة التخريب أو حصر الإنتاج — إنه يفعل ذلك ملبياً داعي الغريزة التي تتطلب حلا وإن كان غير معقول.

٥ — الثورة — ويقصد بها الخروج على أوضاع المجتمع. وسبب ذلك أن فريقاً من الناس لا تلتئم حياتهم مع النظام الاجتماعي مهما يكن سهلاً، ولهذا إذا عاشوا في محيط صعب أصاب جهازهم العصبي الهدم، فتحدث من جرّاء ذلك حوادث مروعة أساسها الضعف النفسي. ومنشأ هذا الضعف اختلال التوازن بين الميول الغريزية. أما فرويد فقد أرجع الضعف العصبي إلى الغريزة الجنسية التي تحد من ظهورها أحكام المجتمع وعرفه. ولكن غيره من العلماء يرى أن عدم فسح المجال للشخص في إظهار نشاطه الحيوي في المجتمع سبب آخر لاختلال التوازن. وقال آخرون إن أية عاطفة كالحب والكره والجوع والخجل والحزن والخوف قد تؤدي إلى النتيجة نفسها. وقال غير هؤلاء إن الحواجز التي تضعها الهيئة البشرية هي التي توجد خللاً في التوازن العقلي لأنها تعاكس مشارب الإنسان. ومثل هؤلاء الناس إما أن يهملوا أعمالهم ويستولى عليهم اليأس والقنوط وإما أن يعمدوا إلى الثورة. وإذا عمد أحدهم إلى الثورة فليس ذلك ناجماً إلاّ عن خوفه من ضياع عمله. فإذا أمكن تأمين مورد العيش للإنسان لم يندفع صوب الأعمال الهدّامة بل نحو التفكير والعمل المثمر والخير العام. وقد ظهرت الديانات والفلسفات في العالم لمقاومة وحشية الإنسان وقسوته، فوضعت الخير المطلق ليحل محل الأنانية والإيمان ضد الخوف.

وهكذا نخرج بالنتيجة التالية، وهي: أن جهاز الانسان يحتاج إلى تنظيم وإرشاد في طرق نبيلة، ويحتاج إلى فرص لإظهار الميول الغريزية الرئيسة التي ليس فيها خطر على المجموع. والآن ماذا يجب أن يقال في تكييف النظام؟ أو ما هو التغيير الذي يجب أن يصيب النظام الاقتصادي كي يلائم مصلحة الفرد والمجموع؟ إن هذا السؤال ينطوي على حقيقة هامة وهي أن النظام الاقتصادي القائم ناقص، ولكني أحسب القارىء يدرك هذه الحقيقة، فأتجاوزها إلى بحث الموضوع الأساسي.

يتم هذا التكيف (تكيف النظام) بطرق عدة : بطريق المصادفة أو الاتجاه الأعمى أو العنف أو التسليم أو التعاون أو الثورة أو التنظيم العلمي .

إن النظام الاقتصادي واسع الآفاق بحيث إن كثيراً من المفكرين حينما يرون تعقيد مسائله ييأسون من حلها ويقنعون أنفسهم بأن التحسين الاقتصادي آتٍ بطبيعة الحال ولكنهم يتناسون المصائب البشرية التي يفرضها النظام . أما التفكير الصحيح فهو أن التكيف يجب أن يتم على ضوء الحقائق العلمية وبالأسلوب العلمي والفلسفة الأخلاقية الحديثة واكتشاف طرقٍ جديدة للحياة الاقتصادية . إن الطريقة المثلى هي معالجة هذه القضايا — كما قلت — بالبحث العلمي الذي يستوجب الاستقصاء والتجربة والتفكير والملاحظة والتحليل والاستنباط ثم البرهان . ولا يتوافر ذلك إلاّ إذا انصرف المختصون كل إلى عمله ليوفقوا حينئذٍ إلى حل معقول . على أن هذا لا يعني عدم إعطاء الحق لكل فردٍ في التفكير في هذه القضايا ، بل نحن نقول إن عليه واجب التفكير ، وعليه أن يكيِّف المحيط الذي يحتويه بقدر ما فيه من مقدرة وشخصية ، أي أن الفرد يجب أن يكون حرًّا طليقاً قادراً على تحسين العمل الذي يزاوله بشرط أن يضبط نفسه ويوجهها توجيهاً رشيداً يلائم محيطه .

يقول جون ديوي في هذا الصدد :

« إن أحسن ضمان للجهد العام هو إطلاق القدرة الفرديَّة المتنوعة واستعمالها في الإنشاء والتنظيم وبعد النظر والنشاط والاحتمال . يجب أن نهذِّب الشخصيَّة . ولا يمكن تهذيبها إذا حصرنا مدى تأثيرها في الأمور الفنيَّة أو الاختصاصية أو شؤون الحياة التي ليس لها منزلة عالية ولكن التعليم الكامل يتم حينما يُعطى لكل فرد نصيب في المسؤولية يناسب مقدرته وكفايته في توجيه الغايات ووضع الخطط للهيئة الاجتماعية التي ينتمي إليها . هذه الحقيقة تحدد معنى الديموقراطية ومنزلتها . . . ترقى طبيعة الإنسان إذا اشتركت عناصرها في توجيه الأمور المشتركة ، تلك الأمور التي من أجلها يكوّن الناس جماعات كالأسرات والشركات الصناعية والحكومات والأديان والجمعيات العلمية وغيرها . . . حينما تعمل مقدرة الإنسان المحرَّرة قوة اجتماعية مبدعة ... وحين يتيسر تحصيل المعاش — من جهة اقتصادية — في ظل حياة جديرة بالكرامة » .

شعب پولندة وطبقاته

لحسين المهدي غنام

١ — شعب پولندة

الپولنديون من أقدم الشعوب الأوربية ، فقد تحدث عنهم بطليموس الجغرافي المعروف ، في القرن الثاني للميلاد ، وسماهم (البولانيز) ، كما أن جوردانيز من القرن السادس للميلاد يتحدث عن السلافيين الذين عاشوا على ضفاف الفستولا ، ولكنهُ لم يقطع بتسميتهم قطعاً باتًّا . وفي القرن السادس أو السابع استقر بعض الناس على هذا النهر ، وكانوا يسمون (الليخ) ، ولم يستطع أحد أن يفسر معنى هذه التسمية تفسيراً مقبولاً معقولاً ، ولكن بعض المؤرخين يقولون إن كلمة (ليخ) تطورت حتى صارت (بولياني) أو (بولاكي) . والمؤرخ الروسي القديم (نسطور) نطق باسمين ، أحدهما (پوليان لياخوف) على نهر الفستولا ، والثاني (پوليان روسوف) على نهر الدنيبر .

ثم إن (شاينوخا) ، المؤرخ الپولندي نفسه ، تحدث في أصل الشعب الپولندي فقال إنهم انحدروا ، كالروسيين ، من سلالات أتت من الشمال فاستوطنت روسية وپولندة ، وحاول أن يعلل نظريته تلك بترجمة بعض الأسماء ولكنه لم يفلح ، وخاصة في تطبيق هذه النظرية على الروسيين .

أما سكان پولندة عامة فيشتملون على العناصر الآتية :

أولاً — الآريون . ويتألفون من :

ا — الپولنديين ، ومنهم القشوبيون ، وهم يقيمون في ساحل البلطيق بالقرب من دانزيج . والبولنديون الذين يمتون إلى الفرع الغربي من الجنس السلافي ، كما تدل على ذلك لغتهم التي ما زالت تحتفظ ببعض النبرات السلافية .

ب — الروسيين الحمر ، وهؤلاء يمتون إلى الفرع الشرقي من الأسرة السلافية .

حـ — الروسيين البيض ، وهؤلاء يؤلفون القسم الأكبر من سكان لتوانية .

د — اللتوانيين واللت والساموجيت، ويقيمون عند ضفاف نهر ڤلنو .

ه — الجرمان، وقد نزحوا إليها في أوائل القرن الثالث عشر .

و — الأرمن، وقد رحلوا إليها سعياً وراء التجارة، واستوطنوها في القرن الثالث عشر كذلك، أما ذراريهم فأغلبهم يعيشون في جاليسية، وما زالوا يحتفظون ببعض لغتهم ولهجتهم .

ثانياً — الفنلنديون : ومن هذا الجنس انحدر (الأستونيون) المقيمون عند شاطىء البلطيق، ولكنهم ظلوا محتفظين بآدابهم ولغتهم وطابعهم الفكري وقوميتهم .

ثالثاً — الساميون : ومن هؤلاء اليهود الذين نزحوا إلى پولندة في عصور متقدمة جدًّا، واحتكروا التجارة فيها .

وكانت هجرة اليهود الأولى من الدانوب الأدنى، ومن مملكة الخزر الذين دخلوا في الديانة اليهودية، وكان عددهم عظيماً وتأثيرهم في پولندة ظاهراً .

وفي نهاية القرن الحادي عشر نزح إلى پولندة فوج آخر من اليهود قدم من ألمانية، وفي منتصف القرن الثالث عشر منحهم (بولسلاس الورع) امتيازات كثيرة، ولما تولى (كازيمير العظيم) في النصف الأول من القرن الرابع عشر زاد لهم في هذه الامتيازات، ولعله توسع فيها محاباة لليهود الذين فطنوا لحاجته إلى المال فأمدوه به لسد نفقات حروبه الكثيرة، ومع أن عددهم في تلك الفترة قارب مليونين ونصف مليون . فإنهم لم يندمجوا في الشعب البولندي، بل ظلوا مترفعين عازفين عن الاختلاط إلاّ في المعاملات التجارية، وكانوا يستعملون اللغة الألمانية بدلاً من اللغة البولندية، وكانوا يعتبرون أحط طبقة من طبقات الشعب البولندي، كما سيأتي بعد .

٢ — طبقات الشعب البولندي

يبدو أن طبقة الفلاحين في كل أمة هي الطبقة التي يقع عليها الغبن الأكبر، وخاصة في الشعوب الشرقية أو المختلطة بها، كالشعب الروسي، وابن عمه الشعب البولندي، على حين أن طبقة النبلاء في تلك الشعوب تتمتع بالنعيم كله .

ففي أوائل القرن السادس عشر كان النبلاء في پولندة يستأثرون بالسلطة كلها، ولم يكن هناك ترتيب تدريجيّ بين الطبقات في تلك الأيام، فطبقة النبلاء الرفيعة كانت تتلوها طبقة

المدنيين أو (أبناء البلد) ، وهؤلاء كانوا في الغالب من الجرمان . أما الفلاحون فلم يكن لهم قدر مطلقاً ! ولم يكن لهم قط حق في معارضة سادتهم النبلاء في شيء . . حتى في الحياة أو الموت . . .

وتبعاً لذلك انحط الأدب القومي بل انعدم ، أما المؤلفون الذين ظهروا وقتئذٍ فكانوا قساوسة استعملوا اللغة اللاتينية في كتاباتهم ، فاندثرت أشعارهم وأناشيدهم وأغانيهم القومية ، ولم يبق من ذلك الشعر القومي غير قصيدة واحدة مخطوطة في خزانة زامويسكي بمدينة وارسو ، وقد نشرها الأستاذ نهرنج في برلين سنة ١٨٨٧ ، وهي تصف حادثة وقعت سنة ١٤٦١ ، وقد صورت هذه الحادثة حالة الشعب في ذلك الحين ، وإليك مجملها :

« كان محافظ مدينة كراكوف يان تنشينسكي من أسرة نبيلة في بولندة ، وقد رفض أن يصحب الملك في حملة تأديب شنها على فرسان الألمان ، أما شقيق ذلك المحافظ واسمه أندرو ، فقد أراد أن يصحب الملك ويساعده في تلك الحملة ، ولكن أسلحته لم تكن صالحة فذهب بها إلى حدّاد اسمه كليمنت بمدينة كراكوف ، فأصلحها الحداد وطلب أجراً لذلك قيمته جنيهان تقريباً ، فنقده النبيل ربع الأجر ، ولكن الحداد أصر على تناول الأجر كله ، فلكمه النبيل ، ثم ذهب إلى مجلس الشورى وشكاه مدعياً أنه اعتدى عليه ورفض تسليمه سلاحه ! .

فأرسل المجلس إلى الحدّاد ، ولكن النبيل لم يقوَ على الانتظار ، فترك ساحة المجلس ووقف مع أصدقائه أمام منزل أحد أعضاء ذلك المجلس ، فإذا كليمنت يدخل ساحة المجلس والرسول معه ، وما كاد الحداد يرى النبيل حتى توجه إليه وقال له : سيدي ! . . إنك أهنتني في بيتي واعتديت عليّ وصلمت أذني ، والآن ستلقى جزاءك الحق . فانهال النبيل وابنه وأصدقاؤه على الحداد بالضرب على قارعة الطريق ، فصرخ الشعب وهاج وماج ، وانطلق ناقوس المدينة يدق ، وأقبل الناس من كل حدب وصوب مهطعين إلى ذلك النبيل وأصدقائه ليثأروا منهم ، ففر النبيل واحتمى بمنزل أحد محصلي الضرائب ، ثم عدا إلى كنيسة ، ولكن الناس لحقوا به وذبحوه فيها !

ولما عاد الملك غضب لهذا الحادث أشد الغضب ، وأمر بالقبض على المذنبين ، فاتهم أخو النبيل القتيل تسعة أشخاص ، منهم عمدة المدينة وثلاثة أعضاء من المجلس ، وخمسة أعضاء مساعدين ، ولكن ثلاثة منهم برئوا ونفذ حكم الإعدام سرًّا في الآخرين ، لأن النبلاء خافوا أن يقتل هؤلاء جهراً فيثور الشعب ! »

هذه هي القصة القديمة ، وقد تناولها المؤرخ البولندي (دلوجوش) . وأضاف إليها ان جثة ذلك النبيل ألقيت على قارعة الطريق وبقيت هنالك ثلاثة أيام ، ولكن بعض المؤرخين الآخرين يقول إن هذه الرواية لا تخلو من مبالغة .

ومن هذه الحادثة تعرف مدى الامتيازات والكراهية التي كان يتمتع بها هؤلاء النبلاء في مختلف العصور ، والتي ازدادت على مرّ الأيام . . .

كان النبلاء يستعملون الفلاحين كقطعان الماشية لا أكثر بل أقل ، يغلون لهم محصول أرضهم . فأثروا إثراءً فاحشاً ، وأصبحوا في سعة تمكنهم من إرسال أبنائهم إلى بلاد أجنبية يتلقون فيها التعليم مع ما في هذا من النفقات الباهظة في ذلك العهد .

وقد وصف القسيس الإنجليزي الدكتور روبرت ساوث ، لما زار بولندة في الربع الأخير من القرن السابع عشر ، كثيراً من أخلاق البولنديين وملكيهم وشعبهم عامة ونبلائهم خاصة . فقال في هؤلاء النبلاء :

« إن للنبيل البولندي الحق في حياة فلاحيه أو موتهم ، فهو يقتلهم أينما شاء ، حتى لو كان لمجرد التسلية »

وقد ذكر كثيراً من الحوادث المخزية التي فعلها هؤلاء (الأشراف !) مع نساء فلاحيهم ! وكان هؤلاء النبلاء يعيشون في أفق من الأبهة والمهابة والعظمة المتكلفة .

وكانت تلك الحال التي عليها النبلاء ، من أكبر العوامل التي أدت إلى انحلال بولندة في القرن الثامن عشر ، حينما خسرت استقلالها . فقد كانت عاملاً في اضطرابات داخلية ، وتفكك بين عرى الشعب ، حتى انقسم عدة طبقات ليس فيما بين إحداها والأخرى نسبة معقولة ، في الغالب . وتأتي بهذا الترتيب :

١—النبلاء ٢—رجال الدين ٣—المدنيون ٤—الفلاحون ٥— اليهود .

* * *

١ — النبلاء : أما النبلاء فكانوا على ما وصفنا آنفاً ، وكان فيهم إلى جانب ذلك غطرسة ، حتى الذي يُعسر منهم ويضطر إلى العمل بيده وإن كان أجيراً في حقل ، تراه سائراً وراء محراثه حافي القدمين ، وهو يعلق سيفاً قديماً صدئاً في جانبه بقطعة من الخيط ، علامة على أنهُ من أرومة النبلاء !

ومن أمثال البولنديين الشعبية في ذلك قولهم : (النبيل في عشه ، كالملك على عرشه !)

وقصدهم النبيل الفقير ولو في كوخ حقير، وهم في هذا المثل يوافقون المثل المصري : (إن دبلت الوردة ريحتها فيها !) ، ولكنهم أشبه بصلف الأتراك الذين جاوروهم مئات السنين . من ذلك قصة بعض شحاذي الأتراك المشهورة بيننا حينما كانوا يجوبون قرى مصر — في نهاية القرن التاسع عشر وبداءة هذا القرن — فإنهم كانوا ينظرون إلى المصريين نظرة الزراية والتعالي حتى حين يسألونهم إحساناً !

ولم تقتصر جناية النبلاء البولنديين على الحياة الاجتماعية بل أضعفوا بلادهم سياسيًّا وحربيًّا ، ولكن سبباً عظيماً من تلك الأسباب التي أضعفت بولندة ، كان افتقار النبلاء أنفسهم إلى الروح الوطنية الخالصة، فقد كانوا يفضلون منافعهم الشخصية والبيتية على مصالح الشعب في مجموعه ، ولقد زادتهم الامتيازات التي منحت لهم تهالكاً على منافعهم المادية ...

وكان لكل نبيل أن يؤسس له جيشاً خاصًّا ! ومن هنا كانت تنشأ مشاجرات خاصة لا تلبث أن تصير نوعاً من الحرب والفتنة الداخلية بين نبيل وآخر أو بين نبيل وعامة الشعب ، وبهذا ضعف جيش الدولة الرسمي .

هؤلاء كانوا نبلاء بولندة ، وهذا بعض شيء عنهم وعن حياتهم ، وسيرتهم طويلة عويصة ، ولكنهم أخذوا يضمحلون ويقلون قبل اضمحلال الجمهورية نفسها ، وأخذ الكثيرون منهم يهجرون ضياعهم ومزارعهم ، بعد أن يرهنوها أو يبيعوها ، ثم ينزحون إلى المدن ليعيشوا عيشة السرف والترف التي قلدوا فيها أغنياء الفرنسيين.

***

٢ — رجال الدين : أما الطبقة الثانية ، وهي طبقة رجال الدين ، فقد احتلت مكاناً عظيماً في الحياة الاجتماعية منذ عرفتها البلاد البولندية ، وكانت لها أملاك شاسعة وضياع كبيرة ظلت تنمو وتزداد ، بما كان يمنح أو يوهب لها ، حتى خشي على أملاك الدولة كلها أن تصبح في يد الكنيسة ، فاستصدر قانون خاص سنة ١٦٦٩ يحظر على الكنيسة أن تحوّل أملاك أحد إليها أو يعاقب بنزعها منه وضمها إليها .

وكان للقسس كراسي في مجلس الشيوخ ، وكان العضو منهم يعين فيه بواسطة الملك ، ويصدق البابا هذا التعيين ، وقد بلغ رئيس أساقفة (جينزن) رياسة هذا المجلس ، كما أنهُ كان (قائمقام) الملك في فترة خلو العرش من أحد الملوك .

ولكن القسس كانوا خاضعين للقانون المدني فيحاكمون أمام المحاكم الأهلية ، وإذا اتهم

أحدهم بارتكاب جريمة قبضت عليه (الشرطة) المدنية ، ولكنه يحاكم أمام هيئة دينية ، فإذا ثبتت إدانته سلمته هذه الهيئة إلى السلطات المدنية تفعل به ما يشاء القانون .

ومع أن رجال الدين كانوا يتمتعون هناك بسلطة روحية عظيمة ، فإن طبقات أخرى من الشعب ممن كان لهم صوت أرقى من صوت الفلاحين ، لم تأذن لهم بالتوسع في امتيازاتهم خشية أن يستبدوا استبداد طبقة النبلاء .

وكان القساوسة حتى سنة ١٥٣٨ يؤذن لهم في شغل الوظائف المدنية العامة ، ولكن هذا التقليد أبطل وحظر بعد ذلك التاريخ ثم سُنّ قانون جعلهم يدفعون الضرائب التي يدفعها سائر أبناء الشعب الآخرين ، ما عدا النبلاء ...

وكان التعليم كله تقريباً في يد الإكليروس الذين أشرفوا على الجامعات ، وكانت مهنة الطب مقصورة عليهم .

***

٣ — المدنيون : أما المدنيون ، أو (أبناء البلد) على حسب اصطلاحنا الدارج ، فقد كانوا في الغالب تجاراً وصناعاً ، ولكن معظمهم كان من الألمان وبعض اليهود .

وذلك لأن العبودية التي فرضها النبلاء على الفلاحين والطبقة المدقعة من أبناء بولندة الخلّص وقيدوهم بها حظرت عليهم العمل إلاّ في حقول ساداتهم ، فصارت التجارة والصناعة في أيدي الأجانب .

وترتب على ذلك عدم وجود طبقة متوسطة من الشعب الأصيل كما تقدم ، فكان هذا سبباً من أسباب سقوط الدولة .

ولم يكن هؤلاء المدنيون خاضعين لقانون الدولة العام ، فكانت لهم قوانين خاصة في المقاطعات المختلفة ، ففي الجنوب كانوا خاضعين لقانون مجدبورج ، وفي الشمال لقانون كولم .

وكان الخصام قائماً بين هؤلاء المدنيين والنبلاء ، وقد حرم على النبلاء الاشتغال بالتجارة والصناعات ، ويبدو أن المدنيين — وكانوا كلهم تقريباً من الألمان واليهود — أرادوا احتكار التجارة والصناعة . ومنهم من تبوأ مركزاً كبيراً ، حتى إن أحد الرعايا الألمان دعا الملك كازيمير وكثيراً من الملوك إلى وليمة أقامها .

ولكن التجارة لم تفلح في بولندة طويلاً ، لأنه لم يكن هناك محاكم ودور للقضاء

تفصل بين النبلاء والمدنيين إذا قصدوا إليها للحكم في مطالبة بدين أو حقوق مالية ، كما رأينا في حادثة الحداد السابقة . فقد تسلط النبلاء على كل شيء ، وكانوا يملكون مدناً بأكملها .

وفي سنة ١٧٦٨ سنّ قانون للحد من فساد هؤلاء النبلاء وجرائمهم الكثيرة ، ولكنه عوّضهم عن هذا ، في الوقت نفسه ، بأن جعل لهم الحق في مضاعفة خدمات المدنيين لهم فلم يكن هذا القانون إلاّ ذرّاً للرماد في العيون !

***

٤ — الفلاحون : وتأتي بعد ذلك طبقة الفلاحين ، وهي تنقسم قسمين :

ا — الكميتون : أي الفلاحون الأحرار . هؤلاء كانوا — كما أطلق عليهم — أحراراً إلاّ في وجوب تأديتهم خدمات معينة .

ب — الفلاحون العبيد : وهؤلاء كانوا ملكاً مشاعاً لساداتهم النبلاء ، وليس لهم حقوق مطلقاً .

أما (الكميتون أو الـ (كميتسي) ، كما كانوا يسمون في اللغة البولندية ، فقد جعلوا يفقدون حريتهم على مرّ الزمن ، وصاروا مثل الآخرين لا يبرحون الأرض التي يفلحونها .

وكان النبلاء يهربون من دفع الضرائب للدولة ، ولكنها كانت تجبى من الفلاحين فقط ، حتى ساءت أحوالهم . ولم يكن الفلاحون الأحرار يملكون من الأرض إلا أحد نوعين :

الأول — قطعة يرثها الفلاح ، ولا تزيد على ثلاثين فداناً قطعاً وتسمى (القالكا أو اللاّن) ، ويكون الفلاح قد ورثها عن أحد من أسرته .

الثاني — قطعة أرض يؤجرها النبيل للفلاح لبضع سنوات ، وكانت السنة الزراعية تنتهي عادةً في عيد الميلاد من كل عام .

ولكن النبلاء — مع هذا — كانوا يسطون على أراضي الفلاحين المملوكة ويغتصبونها منهم ، والفلاح الذي كان يعترض أو يتظلم يتلف النبيل أرضه ، وكانت للنبلاء في ذلك آلاف الطرق . . !

ومع أن الملك كازيمير العظيم كثيراً ما حدّ من جور هؤلاء النبلاء ، فقد خلفه من سنّ قانوناً يحرم على أي فرد عامي — من الطبقة الوضيعة — أن يمتلك ارضاً !

وكان محرَّماً كذلك على التجار والصناع أن يمتلكوا أرضاً ، وهكذا صارت (الأطيان) كلها تقريباً ملكاً للنبلاء !

ويقول المؤرخ البولندي (ليلفل) : إن هذا الظلم أدّى بالشعب إلى الثورات والمطالبة بالحرية الشخصية ، فقد كان محظوراً على أي فلاح أن ينتقل من مكان إلى مكان إلاّ باذن من سيده ، أي صاحب الأرض التي يعمل فيها ، فإنهُ عبد من عبيده !

وقد كان محظوراً على حكام المقاطعات الأخرى أن يأذنوا لأي فلاح من مقاطعة أخرى بدخول مقاطعاتهم إن لم يكن يحمل أوراقاً رسمية من مقاطعته الأولى تخوّله دخول المقاطعة الثانية ، ومن كان يحاول الانتقال من مكان إلى مكان من غير جواز يُعدّ هارباً أو طريداً . . .

ومهما يبلغ الظلم بأحد الفلاحين فإنهُ لا يستطيع معارضة ظالمه (النبيل) إلاّ إذا وجد نبيلاً آخر يحميه ويدفع عنه ، ولكن مثل هذا كان كثيراً ما ينتهي في جانب مصلحة النبيل الأول فيضيع الفلاح بينهما ، إذ يفضل النبيل خصمه النبيل على عبده الفلاح الذليل !

ولم ينصف الفلاحين إلاّ الملك (كازمير العظيم) الذي اعترف بحريتهم الشخصية، وحرّم على النبلاء اغتصاب أرضهم الموروثة ، وجعل للفلاحين الحق في ترك سادتهم متى شاءوا.

ويقول المؤرخ البولندي كرومر إن الطبقات الدنيا في بولندة كانت مثلها في روسية ، تعيش في عبودية مطلقة ، وكان الذي يقتل فلاحاً يدفع غرامة مالية زهيدة ، وكان للسيد الحق في قتل عبيده أو الإبقاء على حياتهم . وقد ظل هذا التقليد قائماً حتى سنة ١٧٦٨ ، حيث أعلن وقتئذٍ أن قتل فلاح جناية كبرى ، ولكن صعوبات كثيرة اعترضت هذا القانون ، فلم تكن تثبت إدانة قاتل إلاّ إذا شهد عليه اثنان من النبلاء ، أو أربعة من الفلاحين ، باعتبار شهادة النبيل الواحد بشهادة اثنين من الفلاحين !

وإذا لم يشهد هؤلاء على قاتل حكم عليه بغرامة مالية فقط . وكان القانون الأسبق يحكم على القاتل بغرامة قدرها عشرة (مارك) أي ما يقرب من ستين قرشاً مصريًا !

وكان النبلاء ينظرون إلى الفلاحين نظرتهم إلى الحيوانات أو أقل ، وقد كتب المؤرخ الرحالة الفرنسي (أوتقي) عن هذه النقيصة فقال : إنه كان يراجع بعض النبلاء في معاملتهم للفلاحين قائلاً إن هذه المعاملة لا تتفق مع الروح المسيحية ، فيقولون إن هؤلاء الفلاحين أقوياء ولكنهم لا يشتغلون . ولا يستعملون قوتهم إلاّ كما نستعملها نحن في قتل جيادنا ،

وإن هؤلاء الفلاحين يخدموننا بدلاً من الحيوانات .

وقد ذكر مثل هذا الرحالة (بيتر موندي) ، وزاد أن الفلاحين يعيشون كالعبيد أو الحيوان ولا يسمح لهم بشيء من الغذاء إلاّ ما يمسك الرمق .

يقول الأستاذ مورفيل: (إن پولندة تألمت كثيراً واحتملت كثيراً وتعذبت كثيراً على يد هؤلاء النبلاء ، ولا نود أن نسترسل في نقد حياتها القديمة وهي في محنتها الحاضرة (القرن التاسع عشر) ، ولكن عدالة التاريخ يجب أن تظل باقية قائمة ، وان نفضلها على العواطف الشخصية ، ولهذا يجب أن ننتقل إلى صفحات « كوكس ») وهو ينتقل إلى هذه الصفحات التي ينتقد فيها القرى الپولندية نقداً قاسياً ، أشبه بالنقد الذي نوجهه إلى قرانا المصرية القذرة الحقيرة ! . فلم يكن السائح الإنجليزي يجد إلاّ فنادق صغيرة يملكها (اليهود) ، كما نجد اليونانيين « الأروام » في قرى مصر البعيدة أو القريبة ينشئون المقاصف والمشارب الصغيرة ! ولكن المسافر كان يضطر أن ينام مع الجياد والأبقار والخنازير . . .

يقول كوكس : (إننا لم نكن نجد في بيت القروي إلاّ حجرة واحدة تنام فيها أسرتهُ كلها ، ولم نكن نجد من الطعام إلاّ بيضاً ولبناً ، وغالباً ما كنا نفقدهما أيضاً فلا نعثر عليهما ، وكان فراشنا تبناً نبسطه على الأرض ، وما كان أسعدنا إذ نجد بعضاً من هذا التبن نظيفاً ! . والقرويون فقراء مدقعون ، خاملون ، وضعاء ، وقد بدوا لنا أيأس وأشقى ناس وقع عليهم نظرنا في أية بقعة من بقاع الأرض جبنا آفاقها. وكانوا عندما يروننا يلتفون حولنا ويسألوننا إحساناً ، متوسلين إلى ذلك بمختلف الأساليب والإشارات) .

ويصف (أوتقي) ، الذي تقدّم ذكره ، الأكواخ الپولندية فيقول : إن أثاث البيوت الپولندية يتكوّن من أوانٍ طينية أو خشبية، أما فراشهم فيصنع من القش والريش، وليس عليه غطاء ما !

ولم يكن لأفرانهم ومواقدهم مداخن تصرف الدخان ، فينطلق هذا في البيت فيمتلئ بهِ، ولم يكن لبيوتهم منفذ غير نافذة صغيرة ترتفع عن الأرض أربع أقدام، وعندما يدخل الناس أكواخهم يضطرون إلى الانحناء وهم داخلون حتى لا يختنقوا بالدخان الكثيف الذي يقابلهم ، ولم يكن في استطاعة أحد أن يرى السقف من كثافة الدخان ، ومع هذا فانهُ من العسير أن ينام أحد في الشتاء إلاّ إذا أوقد ناراً بجانبه !

أما في الصيف فلا تفتح النافذة مطلقاً مهما يكن الجو حارّاً ، كما هي الحال في الفنادق

الصغيرة التي يملكها اليهود ، حتى إن السائح يفضل أن ينام في (الإسطبل) ولا ينام في الحجرة الداخلة المخصصة للمسافرين ، فهي في حال من القذارة لا تقاس بجانبها حظائر الخنازير .. أضف إلى ذلك أن تلك الحجرة في الفندق كانت تستعمل للمسافرين ، ولأفراد أسرة صاحب الفندق جميعاً أن يناموا معهم فيها ، على القش الذي لا يستبدل إلاّ إذا تفتت وتآكل ! (١) .

وكانت هذه المساكن ، بل جميع مساكن البولنديين عامة ، مصنوعة من الخشب تتألف من طبقة واحدة .

* * *

٥ — اليهود : ثم تأتي طبقة اليهود .

وكان هؤلاء منتشرين في بولندة انتشاراً واسعاً، وهم يؤلفون عنصراً هامًّا قويًّا بها ، وقد دخلوها في عصور متقدمة ، ومنحهم الملك كازيمير العظيم (كاچيميش)، امتيازات كثيرة.

وكان هذا الرجل العظيم حقًّا يعطف على الطبقات المفلوكة ، فهو الذي أنصف الفلاحين ، كما تقدم ، وعطف على اليهود ، ومنحهم تلك الامتيازات الكثيرة . أما اليهود فقد أمدوه من جانبهم بالأموال الكثيرة قروضاً ، ليستخدمها في حروبه ، مع أنهم كانوا أوضع طبقة في بولندة .

ولعل الملك كازيمير أخطأ في تقديره لهم خطأً كبيراً أو قليلاً ، فقد استأثروا بتجارة المملكة كلها واحتكروها تقريباً بعد ذلك .

وقد تحدث عنهم المؤرخ البولندي لنجنخ ، الذي عاش في أول القرن الثامن عشر ، فذكر أنهم دخلوا بولندة واشتغلوا خدماً للنبلاء ، وبعضهم أنشأ تلك الفنادق الحقيرة القذرة هناك ، وقد تقدم ذكرها .

وقد عطف عليهم كذلك الملك سوبيسكي ، فانتشروا في بولندة ولا يزالون يؤلفون جزءاً كبيراً من سكانها إلى اليوم .

ومع أنهم بلغوا ذلك الشأو فانهم كانوا كما تقدم يُعدّون من الضالين ، وينزلون منزلة الطبقة السفلى في بولندة ، وكانوا مرغمين على أن يضعوا شارات صفراً لتميّزهم عن الفلاحين البولنديين ...

---

(١) وكانت هذه حال كثير من شعوب أوربة في ذلك الزمن ، ولكنها تقدمت ، وحالة الاغلبية من فلاحي مصر أشبه بتلك الحال ، ولم تتقدم شيئاً !

المدرسة الأمجدية

للدكتور أسعد طلس
من أعضاء المعهد الفرنسي بدمشق

لمحة تاريخية

المدرسة — التربة الأمجدية منسوبة إلى الملك الشاعر بهرام شاه بن الملك المنصور فرخشاه بن شاهنشاه المشهور بالملك الأمجد.

وبهرام شاه هذا تولى بعلبك بعد وفاة أبيه سنة ٥٧٨ ﻫ ولم يزل أميراً عليها حتى قدم الملك الأشرف موسى بن الملك العادل إلى دمشق فملكها في سنة ٦٢٨ وأراد انتزاع بعلبك من صاحبها الأمجد فرفض هذا أول الأمر النزول عنها، ثم اضطره ابن عمه فأعطاه الزبداني وما إليها وانتزع منه بعلبك وهو كاره وكان ذلك في سنة ٦٢٧، ويظهر أن الملك الأمجد سكن بدمشق في دار أبيه مدة قصيرة ومات في سنة ٦٢٧ أو سنة ٦٢٨ قتله غلام مملوك له (١) ويظهر أن الملك الأشرف موسى كان قاسياً في معاملته الأمجد وآل بيته فقد امتلك أموالهم وتصرَّف فيها تصرُّف المالكين. فقد حدَّثنا ابن كثير في حوادث سنة ٦٣٥ أن الملك الأشرف وقف دار فرخشاه التي يقال لها دار السعادة وبستانه بالنيرب على ابنيه (٢). فلا شك عندنا في أن الملك الأشرف تملك أملاك الأمجد وتصرَّف فيها وحرم أبناءه إياها وإلاَّ فكيف يتصرف فيها وأبناء صاحبها أحياء. وقد يقال ربما باعوه إياها ولكن ما عرف عن قسوة الملك الأشرف يجعلنا نستنتج هذا الاستنتاج.

وكان الملك الأمجد شاعراً مجيداً بل هو أشعر ملوك بني أيوب، وكان له ديوانُ شعر، وقد أورد له ابن شاكر الكتبي وابن كثير بعض مقطعات من شعره منها قوله:

يميناً لقد بالغت يا خل في العذل   وما هكذا فعل الأخلاء بالخل
إذا أنت لم تسعد خليلك في الهوى   فذره فقد أمسى عن العذل في شغل
ولا تحسبنَّ اللوم يذهبُ وَجْدَهُ   فلومك بالمحبوب يغري ولا يسلي
وماكنتُ ممن يُذهب الوجدُ حزمَه –   لعمرك لولا أسهم الأعين النجل

قال بدران نقلاً عن النعيمي: إن الملك الأمجد كان أوصى بوصية كبيرة ثم قتل فقام بعده

---

(١) انظر ترجمته في المعلمة الاسلامية النص الفرانسي ١/٥٩٩ والبداية والنهاية لابن كثير ١٣/١٣١ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١/٨١ ومنادمة الاطلال لبدران ١/١١٣ (٢) البداية والنهاية ١٣/١٩٧

ولده الملك المظفر نور الدين عمر فعمر تلك المدرسة بمال الوصية وجعلها على الحنفية والشافعية، وكانت في موضع لطيف جدًّا لها شبابيك تطل على الميدان الأخضر المسمى بالمرجة الفيحاء، وتظهر للواقف بالميدان الأخضر قصراً بديعاً لأنها تعلو عنه علوًّا كثيراً، وإلى جانبها كانت المدرسة الفرخشاهية

وقد ذكر العلموي المدرسة الأمجدية في المدارس الشافعية وقال: إنها في الشرف الأعلى وأول من درس فيها رفيع الدين الجيلي، ثم تعاقب عليها مدرسون كثير منهم أمين الدين ابن عساكر وجمال الدين المحقق الفقيه الطبيب بالمارستان العوزي (— ٦٩٤) (١) والسيد ناصر الدين نقيب الأشراف (— ٨١٤) (٢) وابن قاضي شهبه المؤرخ الدمشقي المشهور وابن قاضي عجلون (٣). قلت: ويظهر أن هذه المدرسة — التربة قد عاشت مع شقيقتها المدرسة الفرخشاهية، فاننا لم نعثر لها على خبر في تواريخ دمشق المتأخرة. وممن كتبوا فيها: النعيمي في تنبيه الطالب والعلموي في مختصره وبدران في المنادمة.

وصف بنائها

تقع هذه المدرسة — التربة لصيق المدرسة الفرخشاهية التي سنصفها لك وهي في حالة أحسن من الفرخشاهية. وقد ساءت حالتها في العصور الأخيرة حتى قال بدران: «إن هذه المدرسة قد أصبحت اليوم بستاناً كالمدرسة الفرخشاهية، ومن يفتش ير موضع هذه المدارس التي كانت بالشرف الأعلى دوراً وحدائق (٤).» ويظهر أن الشيخ بدران مبالغ بعض المبالغة، فإن القبة ما تزال كما كانت في عهدها الغابر، إلاّ أن علائم الشيخوخة بادية عليها ولم ينتقص الناس منها شيئاً. وإنما أتى الخطأ الشيخ بدران لأنه ظنَّ أن المدرسة غير التربة وأنها بناء مستقل مؤلف من غرف وقاعات وأبهاء مع أن هذا ليس شرطاً في المدارس، فقد تكون المدرسة عبارة عن قبة التربة ليس غير، وهذا النوع من المدارس هو الذي اصطلحنا على تسميته باسم — التربة المدرسة — وهذا النوع من المدارس كان فاشياً جدًّا في العصر الأيوبي والعصور التي جاءت بعده. وتحت هذه القباب كانت تقام الدروس وتحلق الحلقات ونحن نشاطر السيد Sauvaget رأيه في أن هذه المدرسة — التربة والمدرسة الفرخشاهية أيضاً لم تكونا أكثر من هاتين القبتين ومن حولها صحن فيه بركة ومرافق. وقد بقي إلى أيامنا هذه شيء من الصحن، والبركة كذلك ما تزال باقية، وقد تعدى الناس على الصحن فاختلسوا قسماً كبيراً منهُ.

---

(١) انظر ترجمته في ابن كثير ١٣ / ٣٤٢ (٢و٣) انظر ترجمتهما في .Y. A سنة 1894 ص ٤٥٩

(٤) منادمة الاطلال ١ / ١١٢

أما مخطط هـذه القبة فهو كمخطط القبة الفرخشاهية : أقيم على أرض مربعـة الشكل مساحتهـا (٦ر٥٠ × ٦ر٥٠) من الأمتار، وهي بناء مربع الشـكل يحيط به حيطان من الحجارة الضخمة من أرضه في إفريز القبة ، وقد كسيت حجارة الحيطان من الخارج بقشرة من الجص الأبيض ما يزال قسم منها باقياً . ومن فوق هـذه الحيطان إفريز قامت فوقه أقواس القبة الأربع التي سنصفها لك في كلامنا على القبة الفرخشاهية ، لأن هذه القبة مثلها تماماً ، ومن فوق هـذه الأقواس يقوم السطح الأصفر الذي تقوم فيـه الست عشرة كوة ، واحدة مفتوحة وأخرى صماء ، وهذه الـكوى الصمّ شباك صغير مربع من فوقه نقش غائر على شكل مروحة أو صدفة لها خمس تخاريم . وهذا الشـكل من الـكوى هو شـكل عراقي بحت جاء الشـام في العصر الأموي ومنه انتشر في العـالم الاسلامي حتى بلغ تونس وجزيرة صقليـة ⁽¹⁾ ومن فوق هذه الـكوى تقوم قبة على شـكل نصف دائرة وفي هـذه القبة طاقات صغيرة جدًّا تساءل المسيو Sauvaget عن فائدتها فقال لعلها للتنوير ، ثم قال إن هذا تعليل بعيد لصغر حجمها فان قطر الواحدة لا يزيد على عشرة سنتيمترات ، ثم قال لعلها للتهوية ولـكنهُ استبعد هـذا أيضاً لعلوها علوًّا شاهقاً ، ثم قال فلعلَّ هـذا نوع من الحيل الشرعية لجأ إليه البناة لئلاَّ يخالفوا الإشارة النبوية التي تنهى عن بناء القبـاب على القبور فكأنهم بهذه الخروق يوهمون أنهم لم يبنوا قباباً تامة . ثم قال ولـكن هذا التعليل غير كاف وهو في الوقت نفسه يثير إشكالات أخرى ، فلعلَّ دراسات أخرى تـكشف حقيقة هذه الطاقات أو الخروق وتبين الفوائد والعلل التي حدت بالبناة أن يفعلوها ⁽²⁾ .

قلت : أما أنا فأستبعد هذا التعليل الثالث كل الاستبعاد ، فإنهذه الحيلة سخيفة وبعيدة من المنطق ، فلا يظن أن قوماً كالأيوبيين يلجأون إليهـا ولا سيما أن أمامهم قبة القبر النبوي وغيرها من القباب وليس فيها شيء من أثر هذه الطاقات أو الخروق . وإنما الذي نراه أنهم إنما جعلوها للتهوية لأنها في مكان عالٍ يسهل معه توريد الهواء وتصديره .

والقبة بصورة عامة حسنة الحالة خارجها وداخلها ، وتمتاز عن القبة الفرخشاهية ببقاء القبر فيها ، وهو فرشة من الحجارة الضخمة حجمها (٢ر٢٠ × ١ر٢٥ × ٠ر٨٠) ومن فوق هذه الفرشة فرشة أخرى من حجارة ولـكنها مسنمة ، وقد جعل لها إطار لينقش عليهِ شيء من الـكتابة ولـكنهُ لم يُـفعل . وليس في حيطان هـذه القبة ما يدل على أنهـا كانت منقوشة أو مزخرفة .

---

(١) انظر .G. Marçais, Manuel I, 32· Der Islam V, 358

(٢) انظر les Monuments I, 40

من ملاحق كتاب « رسوم دار الخلافة »

المآصر فى بلاد الروم والاسلام

لميخائيل عوّاد

— ٧ —

(ب) مأصر الإسكندرية

الإسكندريّة أجلّ ثغور الديار المصريّة وأعظمها شأناً، فهي تطلّ على نحر بحر الروم، وإليها تهوي ركائب التجّار في البرّ والبحر، وتمير من قماشها جميع أقطار الأرض، وهي فرضة بلاد المغرب والأندلس وجزائر الفرنج وبلاد الروم والشام.

أمّا أهلها فهم على يقظة مِن أمور البحر والاحتراز من العدوّ الطارق، ومع هذا لم تَنْجُ من هجمات العدوّ الذي انتابها غير مرّة، واجتاح أهلها، وقَتَلَ وسَبَى، فكان ذلك سبباً محتوماً للعمل على تحصينها تحصيناً منيعاً من البرّ والبحر، فنصب المأصر ذو السلاسل الحديد على فم مينائها، ورتبت المقاتلة على أبراجه.

والذي يؤسف له أنّ أنباء هذا المأصِر ضئيلة المقدار في المراجع القديمة، فهذا القلقشندي (المتوفّى سنة ٨٢١ هـ) أشَارَ إشَارةً خفيفة إليهِ في عرض كلامه على آلات الحصار، فقال: « . . . وقد رأيتُ بالإسْكَندريّة في الدولة الأشرفيَّة، شعْبَان بن حُسَيْن في نيابة الأمير صلاح الدين بن عَرَّام رحمه الله، بها مدفعاً قد صُنِع مِن نُحَاس ورصاصٍ وقيّد بأطراف الحديد، رُميَ عنه مِن الميدان بِبُنْدُقَةٍ مِن حديدٍ عظيمة محماة، فوقعت في بحر السلسلة خارج باب البحر، وهي مسافة بعيدة »[1].

وقد تداوك المرحوم علي باشا مبارك بعض الخلل فأفاض في صفة الإسكندريّة، وأشار غير مرّة إلى برج سلسلة المأصر في مينائها. ودونك بعض ما دوّنه، قالَ في أسوار مدينة الإسكندريّة: « قد استدلّ مِن البحث الذي أجراه العالم الفاضل محمود بك الفلكي على جدران السور القديم الذي كان لهذه المدينة أن عرضه كان خمسة أمتار .... وقد تتبع أثره مِن ابتداء برج السلسلة الذي كان يُسمَّى قديماً (رأس لوشباس) إلى الحدرة . . . . . . وقد ظهر أنّ السور من برج السلسلة إلى الميناء الغربية كان يتبع مسير الساحل .. »

---

(١) صبح الاعشى (٢ : ١٣٧)

ثمّ قالَ : « .... وكان مِن ضمن الحارات العرضية شارع يخرج مِن برج السلسلة بسبب أنه كان به سراية ملوكية .... ، إنّ أراضي المدينة لم تكن مستوية ، وكانت منقسمة بطبقة الأرض إلى قسمَيْن بوادٍ يختلف عرضه .... وابتداء الوادي المذكور من برج السلسلة ، ويمتدّ إلى بحيرة مريوط .... » .

ولدى كلامه على جزيرة فاروس قال : « كانت هذه الجزيرة في الأيام الخالية محصنة بأسوار وأبراج في دوائرها.... والشعب الممتد في البحر بين برج السلسلة والجزيرة مِن جهة وبين العجمي والجزيرة مِن الجهة الأخرى ، فدلّ ذلك على أنّ هذه الجزيرة والشعب المذكورة أصلها مِن الساحل وانفصلت منه بحادثة حدثت في الأزمان العتيقة .... » .

ثم واصل كلامه على الميناء الشرقية التي يطل عليها برج السلسلة ، فقال إنّ « هذه الميناء هي التي مشهورة (كذا) في الأيام العتيقة ، ويسميها الإسكندرانيون الآن بالميناء الجديدة . وكان مدخلها ضيقاً وبه شعب وصخور كثيرة ، منها ما يظهر على سطح الماء ، ومنها ما هو مغطى به ، وكان في داخلها سرايات كثيرة للملوك ، بعضها مبني على الصخور الطبيعية ، وبعضها بني فوق صخور حادثة ، وكان ساحلها من ابتداء برج السلسلة إلى آخر السبعغلوات (الجسر المسمى هيبتاستاد) مزيناً بالسرايات الفاخرة والمباني البهجة . وقد عثر محمود بك أثناء بحثه عن آثار اسكندرية القديمة على بواقٍ من الجسر المذكور . وتلك البواقي متجهة من برج السلسلة إلى جهة مدخل الميناء ويمتد إلى مائتي متر تقريباً ، ويظهر أن الحفر الموجودة الآن في مدخل الميناء كانت من ضمن الجسر . فان كان كذلك ، كان طول الجسر من ابتداء برج السلسلة نحو ٩٠٠ متر في الطول و ٦٠٠ في العرض ، ومن هذا يعلم أنّ الميناء كانت مقفولة من جميع الجهات ما عدا الفم الذي كانت السفن تدخل منه ، الذي هو من جهة المنار وعرضه ٦٠٠ متر ، والظاهر أنه كان منقسماً إلى قسمين ، أحدهما صغير وهو الذي كان من جهة المنار ، وقدره ١٠٠ متر تقريباً ، والآخر عرضه ٢٠٠ ، وكانا منفصلين بصخرة وهي الآن تحت الماء بقدر ٧ أمتار . وفي كتاب ماني الفرنساوي (ألفهُ سنة ١٧٣٥ وهو يبحث في مصر) ، أن الفتحة الكبرى كانت بقرب المنار وتنتهي بصخور بني فوقها قلعة ومنارتان ، والفتحة الثانية كانت بعد هذه ، وكان على نهايتها من جهة برج السلسلة منار ثالث أنهدم ولم يبقَ له أثر في وقته ، وكانت المراكب تمرّ بين الثاني والثالث من المنارات ، ولكنه لصغره وكثرة صخوره كان لا يستعمل إلاّ للمراكب الصغيرة ، والآخر هو الذي كان يكثر استعماله ، وكانت الفتحات المذكورة تقفل بسلاسل من الحديد ، وقد عثر محمود بك أيضاً على آثار الميناء الصغيرة التي غربيّ برج السلسلة

ومتصلة بهِ ... وظنّ أنها الجزيرة التي كان فوقها سراية التيمنوم وكان يتوصّل منها إلى البرّ بجسر في منتصف المسافة التي بين برج السلسلة وجسر السبع غلوات . . . ، والمسافة الكائنة بين برج السلسلة وجسر السبع غلوات طولها ٢٢٠٠ متر ، وكان بهِ السرايات الملوكية ومباني البحرية . وكانت إحدى السرايات المسماة بالسراية البرانية محل برج السلسلة ، ولعلّ سبب تسميتها بذلك خروجها عن الميناء ...، وكان بقرب السراية من جهة الشرق ما بين برج السلسلة والمسلة برج عظيم السعة ... ، والسرايات الأخر كانت بين هذه السراية وبرج السلسلة ... »

وفي عرض كلامه على خليج الإسكندرية قال إنّ « هـذا الخليج كان محاذياً لسور المدينة القبلي ... وكان على الخليج القديم ثلاث قناطر ... وكانت القناطر المذكورة على أبعاد متساوية ، الأولى في جهة البلد ...والثانية في مقابلة الشارع الموصل لرأس السلسلة... »(١)

(ج) مأصر شيديا

لم نعثر على نبأ صريح يذكر وجود مأصر في هذه البليدة ، ولـكنْ إشارة خفيفة ذكرها علي باشا مبارك أثناء كلامه على الإسكندرية ، قال إنَّ شيديا « كانت على بعد أربعة وعشرين فرسخاً من إسكندرية بناءً على ما ذكره استرابون وغيره ، وكانت كثيرة العمران تقرب من أن تعدّ من المدن لكثرة أهلها . وكانت مركزاً لأخذ الجمرك من المراكب الحادرة والمقلعة ولذا قال استرابون إنهُ كان هناك قنطرة من المراكب على النهر ، واسم القرية مستعار من اسم القنطرة . . . » (٢)

(د) مأصر السويس

السويس بليد متوسّد ساحل بحر القُلزم ، وهو ميناء أهل مصر إلى مكة والمدينة ، بينه وبين الفسطاط سبعة أيام . وأخبار مأصره ضئيلة ، وقد انفرد المقريزي بالتلميح إلى برجه في كلامه على حوادث سنة ٥٧٧ هـ . قال : « في (شهر) ربيع الأول طرق الفرنج ساحل تنّيس ، وأخذوا مركباً للتجار ، ووصلت مراكب من دمياط كانت قد استدعيت من خمسين مركباً لتكون في ساحل مصر ، وكمل بناء برج بالسويس يسع عشرين فارساً ، ورتّب فيهِ الفرسان لحفظ طريق الصعيد التي يجلب منها الشبّ إلى بلاد الفرنج ، وأمر بعمارة قلعة تنّيس... »(٣)

أفكان هذا البرج من الأبراج البرية التي تشاد لحفظ الطرق وتأمينها من غائلة العدو ، أم من أبراج المآصر البحرية التي مرّ بنا خبرها في تضاعيف بحثنا ؟ .

---

(١) خطط مصر الجديدة (٧ : ٣٥ — ٤٥) (٢) خطط مصر الجديدة (٧ : ٤٥ — ٤٦)

(٣) السلوك (١ : ٧٢)

عمر الخيام كما أعرفه

- ٨ -

بعث الخيام إلى الشرق

في غير مصر

لمحمود المنجوري

أما الجهد الذي بذلته في هذه الناحية الأقطار العربية الشقيقة ، فللعراق فيه السهم الموفق ، فقد تقدم إلى الرباعيات الشاعر السيد محمد الهاشمي وترجم نحو ٣٠٠ رباعية في سنة ١٩٢١ كما ذكر الأستاذ أحمد حامد الصراف في مقدمة كتابه عن عمر الخيام الذي نشره في سنة ١٩٣١ ، وقد راجعت الأمثلة التي نشرت من هذه الرباعيات فاذا بها تطابق الأصل الفارسي دقة ورقة وسلاسة . وإليك مثلاً منها :

يا إلهي إذا جنيتُ فإثمي   يا إلهي على شبابي وجسمي
وعلى نفسي الحزينة جُرمي   أنا جان رجوت عفواً وصفحا
منك قد غرَّه رضاك فجارا

يا إلهي أوعدتني بعذاب   أنا منه في حيرة واضطراب
أين ؟ قل يا ربي مكان العذاب   حيثما كنتَ لا عذابَ ، فأنى
هو إذ أنتم بكل مكان

جيئتي في الدنيا أذى واضطراب   وبقائي تحير وارتياب
وبقسْرٍ يكون مني ذهاب   أي قصدٍ من جيئةٍ وبقاء
وذهاب ؟ قد ضلَّت الألباب

بيدٍ مصحفٌ وكأسٌ بأخرى   تارةً بالحلال آتي ومرًّا
بحرامٍ آتي فأحمل وزرا   لست تحت السماء بالكافر الحـ
ـرّ ولا كنت كامل الإسلام

ثم ترجمها نثراً الأستاذ العراف في سنة ١٩٣١ ترجمة اشتملت المتن الفارسي تقابله النصوص العربية نثراً، وقد ترجم منها ١٥٣ رباعية نقلها عن نسخة الدكتور فريدريخ روزن وراجعها بنسخة الكاتب التركي المعروف حسين دانش. والترجمة دقيقة صادقة تطابق الفارسية نصًّا ومعنىً تمام المطابقة، وهي آية الترجمات النثرية وأدق ترجمة ظهرت لرباعيات الخيام، في اللغة العربية من حيث الحرص على أداء المعاني كما أرادها الخيام. وإليك نماذج منها:

« قوم يتفكرون في المذهب والدين، وآخرون محتارون بين الشك واليقين. وإذا بمنادٍ يهتف من عالم الغيب: أيها الغافلون الطريق لا هذا ولا ذاك ».

« نحن يامفتي المدينة أصلح منك عملاً، ومع كل هذا السكر أصحى منك، إنَّا نشرب دَمَ العنب، وأنت تشرب دم الناس. فأنصف! أينا أشد سفكاً للدماء؟ »

وترجمها شعراً الشاعر العراقي السيد أحمد الصافي النجفي ونشرها مع المتن الفارسي في ٣٥١ رباعية عن نسختين، واحدة طبعها في طهران السيد رشيد الياسمي، وثانيتهما قديمة قابلها بنسخة الدكتور فريدريخ روزن. وإليك مثلاً منها:

بدا الصبح وانشقَّ جيب الظلام   فقم ودع الهم واحسُ المدام
فكم من صباحٍ سيبدو لنا   ونحن نيامٌ ببطن الرّغام

***

إلهي قل لي من خلا من خطيئةٍ   وكيف تُرى عاش البريءُ من الذنب
إذا كنت تجزي الذنب مني بمثلهِ   فما الفرق ما بيني وبينك يا ربي؟

***

أما ترجمة فيلسوف العراق المرحوم جميل صدقي الزهاوي فقد انطوت على المذاهب الفلسفية التي أرادها الخيام صريحة في غير مواربة، وهي صورة استطاع فيها جميل صدقي الزهاوي الثائر المتمرد أن يطبع في معالمها ما كان يجول في نفسه مما طابق دعوة الخيام من تمرد وتجديد وانقلاب وثورة. وإليك طرفاً منها:

اسقني الكأس فهي تعدل عندي   ألف دين وألف ملكٍ وطيد
ليس من مرة سواها تساوي   ألف حلو في كل هذا الوجود

***

أيها المفتي نحن أتقى وأصحى   منك لا نقسو مثلما أنت تقسو
أنت تحسُو دَمَ الأنام وإنا   لدم الكرم وهو في الجام نحسو

هذا هو الجانب الأكبر من الجهد الذي بذله العقل العربي في دراسة الخيام، وهو

جهد متواضع لا يكاد يوازن الجهود التي بذلها العقل الغربي في دراسته. ولقد استطعنا أن نطوف بالجهدين وأن نذكر منهما ما وصل إلينا حتى اليوم، ولا شك أن الجهود العربية سوف لا تقنع بهذه المباحث المتواضعة وسوف تستأنف نشاطها في ضوء البحث العلمي الخالص، فسيبقى الخيام حيًّا في أدبه وفلسفته ومعانيه ما بقي للأدب دولة، بل إن الصور التي بعثها أدب الخيام ستبقى قوية ناصعة حاملة المعاني التي أحلته مكاناً رفيعاً بين الشعراء العالميين أمثال شكسبير وهايني وجوتيه وموليير، فلقد جمع الخيام ما لكل من هؤلاء من خيال ونقد وتهكم ومزاح وفلسفة ودعوة إلى حرية الفكر والانقلاب.

﴿ ذيل ﴾

مؤلفات الخيام (١)

١ — رسالة في الجبر والمقابلة نشرها الأستاذ ويبك F. Woepcke عام ١٨٥١ م باريز.

٢ — رسالة في شرح ما أشكل من مبادئ إقليدس — مكتبة متحف ليدن.

٣ — التقويم الجلالي (زيجي ملك شاه) جداول في الأرصاد الفلكية، ذكره صاحب كشف الظنون.

٤ — رسالة في الصيد والذهب والخمر والحب والجمال ضمن كتاب نيروزنامه تاريخه سنة ٧٦٨هـ

٥ — رسالة الكون والتكليف في الطبيعيات — رسالة فلسفية كتبها ردًّا على سؤال عبد الرحيم النسوي ونشرها محيي الدين صبري.

٦ — رسالة في كليات الوجود في الطبيعيات كتبها لفخر الملك بن المؤيد، وقد ذكر رس أنه اطلع عليها بالمتحف البريطاني بلندن، وأنهُ قرأ في صدرها الجملة الآتية: هذه رسالة فارسية لعمر الخيام.

٧ — رسالة في الاحتيال لمعرفة مقداري الذهب والفضة في جسم مركب منهما، مكتبة جوتا بألمانية.

٨ — ميزان الحكم في العلوم، لم نعثر عليه.

٩ — لوازم الأمكنة في العلوم الطبيعية، لم نعثر عليه

١٠ — ضبط القواعد في تخريج المربعات والجذور التربيعية

١١ — رسالة في جواب ثلاث مسائل وفي كشف الحجاب عن ضرورة التضاد في العالم، نشرها محيي الدين صبري مع رسائل أخرى بعنوان (جامع البدائع)

---

(١) راجع نزهة الارواح والمستشرق فريدريخ روزن ورس وبرون والصراف

مناظرك نظيرك

باب المراسلة والمناظرة

حول المجلد الخامس
من كتاب الحيوان للجاحظ

قرأت ما دبجته يراعة المحقق الكبير الأب أنستاس ماري الكرملي فيما سبق من أعداد « المقتطف » تعليقاً على المجلد الخامس من كتاب الحيوان ، فزاد إعجابي بهذا المحقق الغيور على العلم . وبهرني ما شهد له الناس به من سعة الاطلاع ، والإخلاص في البحث والتحري.

وزرته في الدير بشبرا القاهرة ، فكدت أقضي العجب حين طلب إليّ في صدق أن أجادله في ما أراه موضعاً للجدل، ثم هو يعيد عليّ هذا الطلب ، فاذا العلم يرتفع ثم يرتفع في ناظري ، وإذا جلال العلماء يأخذني فيما أشهد من كرم هذا الخطير وتواضعه ، فالحق وحده يبقى وتفنى الزخارف والأباطيل .

—قال الأب : « نقل المحرر بعض عبارات إفرنجية تفسيراً لبعض الكلم العربية نقلاً عن الأجانب ، وكان يحسن بهِ أن يترجمها إلى العربية ليستفيد منها من لا يفهم الإفرنجية » ، ومثل بما جاء في الحاشية ١ ص ٣٥١ و ح ٧ ص ٤٦٨ .

أما ما جاء في الموضع الأول وهو : . . . a stone
فقد أثبتُ ترجمته قبلهُ ، وهي : « المينا حجر يشبه حجر اللازورد تزخرف به الفضة».
وأما ما جاء في ص ٤٦٨ فهو : . . . a privy فقد أثبت تفسيره قبل : « هو الكنيف الذي يكون مشرفاً على سطح بقناة من الأرض » .

— أخذ عليَّ حضرته استعمال « التنبيه » مكان « الحاشية » مع أن كلمة التنبيه أعرق في الاستعمال من الحاشية ، وأوسع مدلولاً . وقد عرف من مؤلفات الأقدمين « التنبيه » لأبي عبيد البكري ، على أمالي القالي . و « التنبيهات ، على أغاليط الرواة » لعلي بن حمزة البصري ، وهي حواشٍ وتعليقات وتصحيحات لبعض كتب اللغة ، وهذا نحو ما أنا بسبيله من إخراج مكتبة الجاحظ .

— وفي ص ٦١ قول الجاحظ : « وإذا انحط شرقاً أو غرباً صار كل شيء بين عينيك وبين قرصها من الهواء ملابساً للغبار والدخان والبخار وضروب الضباب والأنداء ، فتراها إما صفراء وإما حمراء » . قال الأب : « الصواب إما صفراً وإما حمراً ، أي أن كلاًّ من صفراً وحمراً بالجمع المنصوب غير الممدود . والمد من جهل النساخ » . وليأذن لي أن أقول إن العبارة سليمة ، وأن كلمتي « صفراء وحمراء » هنا ليست صفة للجمع ، وإنما هي صفة للشمس المفردة ، فإن الضمير في « انحط » عائد إلى « قرص الشمس » في كلام قبله ، وهو : « ولو أن دخاناً عرض بينك وبين قرص الشمس أو القمر لرايته أحمر . وكذلك قرص الشمس في المشرق أحمر وأصفر ، للبخار المعترض بينك وبينه » فالكلام في لون الشمس ، لا لون ضروب الضباب والأنداء .

وليأذن لي كرة أخرى أن أعلن له أن وصف الجمع المكسر بفعلاء المفرد صحيح لا ريب فيه ولا شية ، وقد سبق لي تحقيق قديم في ص ٢١٥١ من مجلة الثقافة ، توجهت بهِ إلى الأب الجليل . ولست أملك أن أعيده هنا مكرراً ، ولكني أضيف اليهِ أموراً (١) جاء في اللسان تعليقاً على حديث : « ليس في الخضراوات صدقة » : « قياس ما كان على هذا الوزن من الصفات ألاَّ يجمع هذا الجمع ، وإنما يجمع بهِ ما كان اسماً لا صفة ، نحو صحراء وخنفساء . وإنما جمعه هذا الجمع لأنهُ قد صار اسماً لهذه البقول لا صفة ، تقول العرب لهذه البقول : الخضراء » فتسمية البقول بالخضراء ، مسبوقة بوصفها بهذا اللفظ ، فهي وصف قد سمي به . (٢) ونظير هذه العبارة ما ورد في المادة نفسها من اللسان ص ٣٢٩ س ٣ : « والخضراء من الحمام الدواجن وإن اختلفت ألوانها ، لأن أكثر ألوانها الخضرة » (٣) وجاء في اللسان (٦ : ٤٢٥ — ٤٢٦) : « وحكى ابن الأعرابي ليل قمراء . قال ابن سيده : وهو غريب . قال : وعندي أنهُ عنى بالليل الليلة ، أو أنثه على تأنيث الجمع » يعني أنه جعل الليل جمعاً لليلة ، كما تجمع البقرة على البقر ، والتمرة على التمر . فهذا نص قاطع أيضاً في أن جمع المكسر المؤنث يسوغ وصفه بفعلاء المفرد . ومما هو جدير بالذكر أن ابن سيده من أشد اللغويين تزمتاً وتحفظاً . (٤) وأما ما يذهب اليهِ الأب من أن ما يرى في الكتب القديمة هو من جهل النساخ ، فإن هذه حجة ذات وجهين ، إذ نستطيع أن نقول إن الناسخين أهملوا بعض الهمزات في هذه الكلمات ، إهمال تحريف أو إهمال رسم (١)

— وفي ص ٨٤ قلت : « البركان عامية ، مأخوذة من : volcano » وقال الأب : « والذي

---

(١) من قواعد علماء الرسم الأقدمين حذف الهمزة خطا ، إن سبقت بساكن ، فيكتبون نحو حمراء : « حمرا » . انظر المطالع النصرية ص ٨٢

عندنا أنها معربة ، وقد وردت في شعر ابن حمديس » وهو يشير بذلك إلى ما ورد في ديوانه ص ٢٤١ من قصيدة له يذكر فيها صقلية :

إذا عثَّنت فيها التنانير خلتها   تفتح للبركان عنها منافسا

لكن ابن حمديس ليسَ ممن يحتج بعربيته ، وهو من شعراء القرن السادس الهجري ، توفى سنة ٥٢٧ . ولعلَّ أقدم نص وردت فيهِ هذه الكلمة ما جاء في التنبيه والإشراف للمسعودي المتوفى سنة ٣٤٥ . قال في ص ٥٢ : « وجزيرة صقلية وما يليها من جبل البركان ، ومنهُ تخرج عين النار التي تعرف بأطمة صقلية » والرجلان ليسا ممن يعتد بتعريبه .

— وفي ح ٢ ص ٩٥ : « فذا توفى حوالي سنة ٣٣٧ » أنكرها الأستاذ الأب ، وقال : إن الفصحاء من الكتبة لم يعرفوها . وليست هذه بحجة قاطعة في نفي صحة هذا الاستعمال ، فإن فصحاء الكتبة الأقدمين لم يعرفوا كثيراً من العبارات التي نتداولها اليوم ونديرها على المجاز والاستعارة والتمثيل . أفيمنع ذلك صحة تلك العبارات ؟ وفي اللسان : « رأيت الناس حواله وحواليه ، وحوله وحوليه » فهذه الألفاظ أخوات يجعل أحدها في مكان صاحبه .

— وفي ح ٩ ص ١٥٢ : « فيما عدا (ل) : فه . وأنى يكون له فم ؟ » وهو تعليق على قول الجاحظ : « إذ مرَّ العقعق والسِّخاب في منقاره » قال الأب : « ورواية الفم أصح من رواية المنقار » . واستشهد بقول صاحب المصباح إنهم قالوا : فم الحيوان . أما أن رواية الفم أصح من رواية المنقار فلم يأت لها الأب بدليل ، إذ لا ريب في أن الاسم الموضوع للشيء أولى من الاسم المستعار له ، والمنقار هو الموضوع للطير . وأما استشهاده بما جاء في المصباح من إضافة الفم إلى الحيوان وإدخاله بذلك الطير في جملة الحيوان ففيه نظر آخر ، إذ أن المراد بالحيوان هنا ما عدا الطير الذي خص به لفظ المنقار . ومما هو جدير بالذكر أن نسخة « ل » المشار إليها في التعليق هي أصح نسخ الحيوان وأقومها .

— وفي ح ٥ ص ١٥٨ كتبت في قول الشاعر : « معي كل فضفاض القميص » بقولي : « (ط) فقط فضفاض الثياب . ولم أجدها في مرجع » . ظنَّ الأب أني أستنكر العبارة ، وأنا إنما عنَيت أن نسخة ط من الحيوان أتت وحدها بهذه الرواية ، ولم أجدها في مرجع آخر من المراجع التي سقتها لتخريج هذا البيت ، وسردتها في ص ١٥٧ — ١٥٨ .

— وفي ح ٥ ص ٢٠٩ قال الأب : « وقد أخطأ استينكاس بتسميته بالإنكليزية : black partridge والحق أن استينكاس لم يسمه هكذا ، بل سماه : Francolin وأما الذي سماه Black Partridge فهو المعلوف في معجم الحيوان ص ١٨٤ .

— وفي ص ٢٧٩ : « تبت بلاد بالصين » قال الأب : « الصواب أنها بلاد واقعة في شرقيها

وليست منها » . وأمامي الآن مصور (مصلحة المساحة المصرية) للدولة وفيه رسم للدولة الصينية وهي تشتمل على بلاد الصين الأصيلة ، وبلاد المغول ، وبلاد التركستان الشرقية ، وبلاد تبت، وموقع بلاد تبت في الغرب لا الشرق، فليس في شرق الصين إلاّ بحر الصين .

— وفي ص ٢٩٩ ، قال الأب : إن « سم بريص » ليس من كلام العوام ، وإن الشاعر تصرّف في هذه الكلمة « تصرف الشعراء في الكلم من قصر وزيادة وتغيير » . وهذا التصرف الذي عناه له حدود وقوانين ، دوّنها النحاة في أبواب الترخيم ، وقيدها الأدباء في ضرائر الشعر ، « وسم بريص » ليس على قاعدة من قواعد الترخيم ولا مما يجيزه الأدباء في ضرائر الشعر .

— وفي ص ٣٣٥ قال الأب في الكلام على « بيشة » : « والذي في حفظنا أنه من مواضع العراق » . وليس الأمر كذلك ، فإن بين بيشة والعراق بوناً شاسعاً . قال ياقوت : « بيشة من عمل مكة مما يلي اليمن ، من مكة على خمس مراحل ، وبها من النخل والفسيل شيء كثير . وفي وادي بيشة موضع مشجر كثير الأسد » .

— وفي ص ٣٦٦ قال الجاحظ : « وليس للكلب اسم سوى الكلب ، وللديك اسم إلاّ الديك » . فذهب الأب إلى أن الجاحظ يعني أن الديك ليس له اسم سوى الديك ، واستدرك على الجاحظ بكلمتي « العترسان والعترفان » ، والحق أن الجاحظ إنما يعني الأسماء الجامدة التي ليس لها أصل في الاشتقاق ، فهو يقول قبل هذا الكلام : « وللسنور فضيلة أخرى ، أنه كثير الأسماء القائمة بنفسها ، غير المشتقات » وذكر من أسمائه القط ، والهر ، والضيون . أما الديك فليس له اسم آخر من الأسماء الجوامد مثل ما للسنور . وأما ما ذكره الأب من « العترسان والعترفان » فإن الواحد منهما مشتق من العترسة ، وهي الغصب والغلبة ، والأخذ بشدة وعنف وجفاء وغلظة ، ومنه العنتريس للداهية وللناقة الصلبة الوثيقة والرجل الشجاع . والآخر مشتق من معنى الشدة والخبث . قالوا : جمل عتريف وناقة عتريفة شديدة . ورجل عتريف وعتروف أي خبيث فاجر جريء ماض.

— وفي ص ٣٧٣ ذكر الأب أن « الضمج » وهو ما يعرف في مصر بالبق لا يعيش بالعراق ، وأنه يموت هناك لشدة الحر . وهذا عجب ، فإنه إنما يتكاثر ويظهر في مصر في شدة الحر ، ويختفي في الشتاء والربيع . وقال أيضاً : إن صواب العبارة « يكون في السرر والحصر » لا « السرر والجدر » وأيد ذلك بقوله : « إنه يعيش فيها — أي الحصر — بمئات وألوف » مع أن المشاهد الواقع بين ظهراني المصريين أن الضمج إنما يشتد تكاثره في شقوق الجدران وثقوبها . ولذلك يلجأون إلى رأب تلك الصدوع وسد تلك الثقوب . أما الحصر فأقل شأناً من الجدر في إيواء الضمج وتكثيره . وأما كلمة « القتل » فقد نبهت عليها في أخطاء الطبع.

— وفي ص ٤٦٣ عبارة : « التياس صاحب التيوس » قال الأب : « يكفي التياس أن يكون له تيس واحد ، أو أن يكون ممسكاً تيساً واحداً ليصح فيه هذا الاسم » . وعلى قياس قوله ينبغي أن نفسر « الكلاَّب » بأنه صاحب الكلب ، و« البقَّـار » بأنه صاحب البقرة ، وهكذا . وليس ذلك بمألوف في عبارات المفسرين من اللغويين ، فهم يقولون في تفسير الكلاَّب إنه صاحب الكلاب والقرَّاد صاحب القرود ، وفي تفسير البقَّـار صاحب البقر ، والبغَّـال صاحب البغال[1] ، ولعل ما دفع الأب إلى ذلك ما ورد في اللسان من قوله : « والتياس الذي يمسكه » وفي القاموس : « والتياس ممسكه » فهما في ذلك تابعان للجوهري في الصحاح . والجوهري إنما تكلم بالإفراد هنا لأنهُ أراد أن يرجع الضمير إلى « التيس » الذي سبق ذكره قبله ، وهو مفرد .

— وفي ص ٤٧٣ كتبت « الغراير » كما وردت في أصل الحيوان بالياء ، على التسهيل ، فقال الأب : « الصواب أنها مهموزة ... لأنها غير جوفاء ولا يائية البناء » . وليس في الأمر خطأ ولا صواب ، وإنما هما مذهبان يجري أحدهما على الهمز والآخر على التسهيل . والتسهيل هو لغة قريش في جميع كلامها ، وإن كان النحاة قد وضعوا للتسهيل قيوداً ورسوماً لم تعرفها قريش ، فان النصوص متواترة أن قريشاً لم تستعمل الهمزة في كلامها . قال الرضي[2] : « نخففها قوم ، وهم أكثر أهل الحجاز ولا سيما قريش . روي عن أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه : نزل القرآن بلسان قريش ، وليسوا بأصحاب نبر ، ولولا أن جبريل عليه السلام نزل بالهمزة على النبي صلى الله عليه وسلم ما همزنا » .

وقال السيوطي[3] : « والكُـتَّـاب بنوا الخط في الأكثر على حسب تسهيلها لوجهين : أحدهما أن التسهيل لغة أهل الحجاز ، واللغة الحجازية هي الفصحى » .

وقال ابن منظور[4] : وفي الحديث : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : يا نبيء الله . فقال : لا تنبر باسمي — أي لا تهمز — وفي رواية : فقال : إنا معشر قريش لا ننبر . والنبر : همز الحرف . ولم تكن قريش تهمز في كلامها . ولما حجَّ المهدي قدم الكسائي يصلي بالمدينة ، فهمز ، فأنكر أهل المدينة عليه وقالوا : تنبر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن » .
على أن المتصفح لكثير من المخطوطات القديمة يرى كتابة التسهيل شائعة فيها .

— وقال الأب في ص ٤٧٤ في بيت أبي الأسود الدؤلي :

ولا بسبس كالعنز أطول رسلها ورمّانهـا يومان ثم يزول

---

(١) انظر اللسان (٢ : ٢١٨ س ٢ / ٤ : ٣٥٠ س ١٠ / ٥ : ١٤٠ س ٨/١٣ : ٦٣ س ١٠).
(٢) شرح الشافية (٣:٣١) . (٣) همع الهوامع (٢:٢٣٣) . (٤) اللسان (٧ : ٣٦—٤٠) .

« الكلمة مصحفة أصلها بشيش بشينين معجمتين يتوسطهما ياء مثناة تحتيّة ساكنة ، والشيش الصيص ... » إلخ . وهذا التصحيح الذي أورده لا يستقيم به الوزن، ومن أين لنا تشبيه الصعب الخلق بالرديء من التمر .

— وفي ص ٥٢٥ : « الرق ، بالفتح : السلحفاة المائية » . وقد استغرب الأب هذا التعبير لأن السلحفاة تكون دائماً مائية برية » .

والحق أن السلاحف على ضربين : سلحفاة برية لها طبع الحيوان البري، وأخرى بحرية لها طبيعة التمساح تعيش في البحر وتضع بيضها في الشطوط . وقد عقد الدميري فصلاً لكل منهما . وفي اللسان : « والرق ضرب من دواب الماء شبه التمساح » . ويقال للسلحفاة البحرية أيضاً الحمسة واللجأة . وقد خصصت المعلمة البريطانية فصلين للسلحفاة البحرية : Sea tortoise و Sea turtle جاء في الأول منهما : these all have the limbs formed as flippers : أي أن لها أطرافاً كهيئة الزعانف . كما خصصت فصلين للسلحفاة البرية : Land tortoise و Land turtle جاء في الأول منهما : a chelonian of terresterial habits أي السلاحف ذات الطبائع البرية .

—وفي ص ٥٦٦ ورد ذكر « النقل » وهو ما يعبث به الشارب على شرابه ويتنقل به. وجاء في نصوص القدماء : « ويقال أيضاً بالضم ، وقيل الضم عامية » قال الأب : « وعندنا أن الضم هو الأفصح ، لأنهُ معرب عن اللاتينية : Nucleus » . والحكم بتعريبه ليس من القوة بمكان ، لأن المادة في العربية واسعة ، واشتقاق هذه الكلمة من مادتها ليس فيه شيء من العسر . ولو قد ذهبنا إلى أنها معربة ، ما كان هذا اللفظ الذي عرب حكماً ومقياساً في تقدير الفصيح والأفصح ، إذ أن اللغة العربية لغة مروية ، وللرواية فيها السلطان والحكم . والعرب لم يلتزموا في التعريب مداناة الأصل ولا مقاربته ، وإنما يلزمون ما تطوّع لهُ ألسنتهم وأذواقهم .

هذهِ بعض ما أسعفتني به هذه الصُفحات المَحدودة من « المقتطف » وبقيت مواضع لم أعرض لها خشية الإطالة .

وإني لأقدم إلى الأستاذ الأب الجليل شكراً صادقاً، واعترافاً خالصاً بجميل صنعه في ما درس من هذا الجزء من كتاب الحيوان ، وندعو الله أن يمتعه بالسلامة والعافية ، حتى نقرأ دراسته لسائر هذا الكتاب وما يتلوه من مكتبة الجاحظ ، ولنفيد من أدبه البارع وعلمه الوافر الغزير .

عبد السلام محمد هارون

التّعريف والتّنقيب

نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق ، فنجريه إلى غايتين : إحداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً أو أداء ، والأخرى نشر ما انطوى من الضنائن المخطوطة أو المهملة . ومقصدنا أن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل ومعرضاً للمستبصر الراكن . هذا ويشترك في إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى .

بشر فارس

المشتمل

١ — الكتب

الحياة الإنسانية عند أبي العلاء نقد بقلم إبرهيم عبد القادر المازني

كتب ظهرت :

إبليس يغني ، أبو نواس ، جحا في جانبولاد ، حلاوة الفراق في العراق ، المجتمع الأفضل

٢ — التحقيق

كلمتان في الديوان المنسوب الى المعرّيّ بقلم
خليل شيبوب
محمد عبد الغني حسن

٣ — المصادر

ما علم من تواريخ البلدان العراقية بقلم كوركيس عوّاد

١ - الكتب

• الحياة الإنسانية عند أبي العلاء • بقلم **بنت الشاطىء**

١٥×٢٢ سم ٢٠٨ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر / ١٩٤٤

هذا كتاب قيم ، وضعتهُ الأديبة « بنت الشاطىء » (السيدة عائشة عبد الرحمن) وتقدمت به إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول في سنة ١٩٤١ فنالت به درجة الأستاذية « ماجستير » في الآداب مع مرتبة الشرف الأولى ، ونشرته في الشهر الماضي من هذا العام لمناسبة الاحتفال بمرور ألف عام على مولد المعري ، بعد أن أعادت فيه النظر وراجعته.

ومما يجب أن يذكر لها بالحمد والإعجاب قولها في « مقدمة النشر » إن من خير ما انتفعت به عند مراجعة البحث وإعداده للنشر « الرجوع إلى التقرير القيم الذي كتبه عنه حضرة شيخي الجليل « الأستاذ أمين الخولي » والنظر في مناقشاته لي أثناء الامتحان. وأشهد أن هذا التقرير قد غيَّر من رأيي في غير مسألةٍ تغييراً جوهريًّا ، فما أتردد في الاعتراف بأنه كان تكملة للتوجيه المنهجي الذي تدين به حياتي الفكرية لشيخي الجليل » .

والكتاب فصول كثيرة بعضها أطول من بعض ، تناولت فيها بالبحث الدقيق المعتمد على النصوص من شعر الشاعر ونثره ، منهج أبي العلاء في تفكيره ، ومكانه بين الشعر والفلسفة ، وأبا العلاء أمام هذه الحياة ، ومراحل الحياة الإنسانيـة ، من النشأة إلى الموت ، وما عسى أن يكون بعده . فتكلمت على إيمانه بالعقل تارةً وكفره بهِ تارةً أخرى ، وعللت اضطرابه وتناقضه ، وعرضت أقوال من زعموه فيلسوفاً أو غير فيلسوف ، وشاعراً أو غير شاعر ، وانتهت إلى أن شأنه ليس بشأن الفيلسوف ، وأنه قد يلتقي مع الفيلسوف في النهاية « ولكنه يأخذك إليه واثباً مسرعاً » ، وأنهُ بين الشعراء في الذروة من حيث وضوح الشعور وصفاؤه وقوته ، وبينت الفرق بينه وبين غيره من الشعراء ، وكيف أنه لا يكذب ولا يقول إلاّ ما يعني ، وأن شعرَه ترجمة صادقة عما يجد ويرى .

وتناولت تشاؤمه — وردَّته إلى دواعيه — ومتاعبه الخاصـة في حياته ونضاله للدنيا وهزيمته ، وسوء الحياة العامة في زمانه ومكانهِ ، وعللت خروجه إلى بغداد بأنه فوق حب العلم وطلب الشهرة ، كان مظهراً لنضاله ، وتحديه للدنيا ، والاستخفاف بمتاعبه وبآفته ، ولكنهُ

وجد أن مكانه قلق في بغداد، وإن كان قد زعم أنه ما رحل عنها إلاّ لمرض أمه وإخفاقه في طلب الثراء .

وانتقلت بعد ذلك إلى رأيه في الخلق وهل له علة غائيّـة، فاستخلصت من كلامه أنه يرى أن الكون لم يخلق لنا أو من أجلنا، وأن ظواهره لا تتأثر بنا، وأن لكل كائن حقه في الحياة، وأن الكون لم يخلق عبثاً، ولكننا نجهل العلة والحكمة وإن كان جهلنا لا ينفي وجودهما . وتكلمت على الخير والشر، والجبر والاختيار، ورأي أبي العلاء في ذلك كله ومذهبه فيه، وكيف أنهُ كان متشائماً يرى الكون حافلاً بالشر، وأن إرادة الله شاملة فهو تعالى خالق الخير والشر، وأنه سبحانه لا يقع في ملكه ما لا يريد، وأن الله لا يُحكم عليه بما يُحكم علينا بهِ، وأننا لا نملك سوى مقاييسنا المحدودة وجلَّ الله عن التشبيه والقياس وبينت أن الرجل كان متردداً بين الجبر والاختيار لا يثبت على رأي في أحدهما، بل لقد بلغ من حيرته أنهُ كان أحياناً يجمع بين النقيضين، وقد اختلف رأيهُ أيضاً تبعاً لذلك في الثواب والعقاب .

وساقت الشواهد على أن الشاعر، على الرغم من سوء ظنه بالدنيا وما يعرب عنه من رغبته في التخلص من محنة الحياة، لم يبرأ من حب الدنيا، بل كان متشبثاً بالحياة، شديد الفزع من الموت، لجهله بما وراءه وخوفه مما عسى أن يصير إليه بعده

وليس هذا الذي ذكرته إلاَّ سرداً لما حواه هذا الكتاب من البحوث الدقيقة المحكمة وأشهد أنه خير ما قرأته في موضوعه، بل خير ما نشر في عامنا هذا من المباحث المتصلة بأبي العلاء . والاستقصاء فيه تام، والتحقيق وافٍ، والآراء سديدة متزنة .

وليس ينقصه ليتمَّ به انتفاع القراء إلاّ أن يضاف إليه شرح بعض الغريب، فقد كان أبو العلاء مولعاً بهِ، حتى لقد وصفه ياقوت في معجم الأدباء بأنه متفاصح متحذلق، بل شتمه وقال إنه حمار، ومعتوه، ومجنون، واتهمه بالزندقة وكفره . ولكن هذا لا يعنينا في هذا المقام، وإنما أردنا أن نقول إنهُ كثيراً ما يستعمل ألفاظاً حوشية غير مأنوسة أو مألوفة مثل الصَّعْو للعصفور، والمَعْو للرطب، والنطف لفاسد النية، والكر للحبل إلخ . . . ولا سيما في نثره، ومن حق القراء على المؤلفين أن يتوخوا شيئاً من التيسير عليهم . فإن بنا حاجة إلى تحبيب الأدب العربي القديم إليهم، وتألفهم من نفرتهم منه .

ابرهيم عبد القادر المازني

• إبليس يغني • بقلم صلاح الدين المنجد

١٤ × ٢١ سم ١٣٥ ص مطبعة الترقي دمشق ١٩٤٣

رأى الأديب الدمشقي صلاح الدين المنجد أن يشارك في بعث الأدب العربي القديم وصبه في قالب حديث منشط، فاختار قصتين من ذلك الأدب بطلهما إبليس، وهو تارةً يغني وأخرى يلهو، والقصتان من « الأغاني » في معرض أخبار الموصليّين إبراهيم وإسحق، وفيهما خفّة. والقصة الثالثة « حسناء البصرة » تمثل لوحات الوجد ولهفات الهيام. وقد اختار المؤلف قالب المسرحية للقصص الثلاث ولم يطلق مخيلته ولم يستثمر تجربته. ولكن توسم خطط الأصل متلطفاً فلم يتجاوز الترتيب والتفصيل والتقطيع. *(١)

• أبو نواس • بقلم عبد الحليم محمود

١١½ × ١٦½ سم ١٣٦ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر « اقرأ » ١٩٤٤

• جحا في جانبولاد • بقلم محمد فريد أبو حديد

١١½ × ١٦½ سم ١٤٤ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر « اقرأ » ١٩٤٤

• حلاوة الفراق في العراق • بقلم عبد الحليم اللاذقي

١٤½ × ٢٠ سم ٨٤ ص دار النهضة بيروت ١٩٤٤

في هذه الرسالة العجلى يحكي لنا المؤلف رحلة قام بها في العراق. وعلى قصر هذه الرحلة استطاع أن يجلو لنا مرآة تعكس بعض خصائص المدن العراقية الكبرى على تفاوتها وألواناً من النشاط الذي يقبل عليه أهلوها.

ولم يسطر المؤلف رحلته تسطير الأديب أو الشاعر أو المنقب، ولكنه أراد أن يقرر وأن يصف وان ينبه على طريقة الجوّال المستطلع في بساطة وسهولة. وله على وجه التخصيص التفاتات مفيدة إلى ناحية تخطيط المدن.

هذا ولعلّ المؤلف أراد بعنوان الرسالة — وهو مستغرب — أن يقول إن العراق حلو عنده إلى حدٍّ يجعل حلواً فراقَ الأهل والأحباب من أجله. *

---

(١) النجم يرمز إلى اسم من أسماء المتعاونين على الإنشاء في هذا الباب.

• المجتمع الأفضل • بقلم أندره فكتور

١٤×٢٠ سم ٧٨ ص دار المكشوف بيروت ١٩٤٣

يحسن التنويه بإقبال دار المكشوف على نشر سلسلة من التآليف التي تتناول « مشاكل اليوم » وذلك بجنب إخراجها مجلتها المتداولة ومنشورات في فن النثر والشعر وقف قارئ هذا الباب على طائفة منها . وأما تلك السلسلة فتصفها الدار تقول إنها « غذاء عقلي يستسيغه كل طالب معرفةٍ وراغبٍ في الاطلاع على ما يضطرب به العصر من معضلات » .

و « المجتمع الأفضل » رسالة لطيفة ألفها كاتب فرنسي ثم نقلها إلى العربية الأستاذ إلياس أبو شبكة ، فهو حريّ بشكر الشاكر . وتتصل الرسالة من حيث المجرى والمقصد بسياسة النفس البشرية ، ورائدها المحبة والعمل والإتقان وغير ذلك من البواعث الشريفة .

ويا ليت الرسالة خرجت في لغتنا سليمة الأداء ، محكمة السبك . فإن في أسلوبها أثر التركيب الفرنسي في مواضع ، مما يُخرج التعبير عن نسجنا وصياغتنا ، وقد يزلقه إلى جانب العُجمة . في الرسالة مثل هذا : « فهل فكرتم مرة في أهمية ما يصدر عن اقتناء مذهب اجتماعي سليم » ، ومثل هذا : « المناضل لأجل مصالحه الذاتية ضد مصالح الآخرين » .

وأما الزلات فقول المترجم : « تبريراً لما يأتونه من مظاهر العنف » . والصواب « تسويغاً » لأن المقصود هو التجويز لا التزكية — وقوله : « أسياد العالم » . و « أسياد » من لفظ العامة على ما نبه عليه الشيخ إبرهيم اليازجي في « لغة الجرائد »(١) — وقوله : « فهل هي مذهب فناء أم هي مذهب حياة للمجتمع ؟ » فوضع علامة الاستفهام في آخر الجملة يخرج معنى أم من الإضراب ، فالغرض إذاً طلب التعيين ، ولا بدّ من استعمال الهمزة — وقوله : « منهمكاً بمصالحه » والمسموع : « همكه في الأمر ، وانهمك فيه وتهمك فيه » عن « لسان العرب » .

هذا وحسب المترجم هذا القدر من المآخذ ، وهي بعض ما وَقَفنا في خمس الصفحات الأوليات من الترجمة . على أننا ندري أن في القطر الشقيق : في بلد اليازجيين والبستانيين أولئك الأئمة الأعلام ، من تسلم العبارة على طرف قلمه ويروق البيان ، فهنالك الفاخوري والعلايلي وعبّود وزريق وزخريّا ، وأضرابهم غير قليل فلسنا ها هنا في سبيل الإحصاء .

وبعدُ فليس الأصل الفرنسي بين يدينا فلا سبيل إلى الحكم في شأن الترجمة وفي مبلغ انطباقها على الأصل .

*

---

(١) من غرائب العاميات في هذه الرسالة كلمة « ورشة » ص ٢٢ . والمقصود المصنع أو المعمل ، فلفظة الورشة مما عربه العامة عن الانجليزية workshop .

◆

٢ – التحقيق

نشر المقتطف في جزء أغسطس الذاهب ديواناً منسوباً إلى أبي العلاء المعري، عُني بإخراجه الدكتور أسعد طلس. وقد وردت علينا كلمتان في تحقيق هذا الديوان نثبتهما بعد :

— ١ —

إن من قرأ ديوان اللزوميات وديوان سقط الزند للمعري وأَلِف بعض الشيء طريقته في التفكير والنظم يقطع قطعاً باتّاً بأن الديوان الذي نشر في المقتطف في عدد أول أغسطس سنة ١٩٤٤ لا تصح نسبته إليه، بل هو لبعض المتأخرين من شعراء القرن العاشر أو الحادي عشر الهجري، لأن في روح هذا الشعر وأسلوبه ومعانيه واستعاراته دليلاً واضحاً على أن ناظمه متأثر ببعض الشعراء الغزليين من المائة الأولى للهجرة، كقوله :

نفت عن جفوني النوم ورق حمائم   شكون ولم يفصح لهن لسانُ
نعين ولم يذرفن دمعاً وإنما   تناثر من عيني لهن جمانُ

فإن فيه التفاتاً إلى الأبيات المشهورة لابن الدمينة:

ألا يا حمامات اللوى عدن عودة   فإني إلى أصواتكن حنونُ
ولم ترَ عيني قبلهن بواكيا   بكينَ ولم تدمع لهنّ عيون

أما تأثره بديوان ابن الفارض فجليّ كل الجلاء، حتى إن كثيراً من معانيه مقتبس منه، بل إن طريقته في الوصف مطبوعة بطابعه، كقوله :

إليك فلو ذقت الهوى لعذرتني   جفونك وسنى والفؤاد هواء

قال ابن الفارض :

دع عنك تعنيفي وذق طعم الهوى   فإذا عشقت فبعد ذلك عنِّفِ

وقوله :

عدوني وإن لم تنجزوا رب موعد   شفى علتي منكم وإن خاب مطمعي

قال ابن الفارض :

عديني بوعدٍ وامطلي بوفائه   فعندي إذا صح الوفا حسُن المطْلُ

وقوله : ضمنت لها أن لست أسلو عن الهوى وحكمته فليقض ما هو قاض

قال ابن الفارض :

ولك الأمر فاقض ما أنت قاضٍ فعليَّ الجمال قد ولاكا

إلى غير ذلك من الأبيات الكثيرة المنبثة في الديوان، حتى إن في قصائد حروف الراء والطاء والعين وبخاصة النون معاني منسوخة نسخاً وممسوخة مسخاً لبعض المتقدمين، ولابن الفارض هذا . وهناك صيغ شعرية، كقوله «عشيات الحمى »و« موعدك الحشر» تثبت أن الناظم لم يكن يجري على سليقة مستقلة أو أسلوب شخصي. إلاّ أننا في الأبيات الأولى من قصيدة حرف الزاي نتبين بعض الشيء روح المعري ، والبيت الوحيد الذي يتمشى مع نفس المعري هو قوله :

ضغائن في صدر الليالي على الفتى فمستقبل من خطبهن وماض

على أن قولهم إن في هذا الشعر قيوداً مما كان المعري يأخذ نفسه بها ، ليس على شيء من الصحة، لأن المعري لم يأخذ نفسه إلاَّ بالتزام ما لا يلزم، كما انقاد في بعض المواقف إلى الإكثار من الجناس اللفظي من مركب ومصحف وتام وغير ذلك .

أما ناظم هذا الديوان فقد تقيد بعدد الأبيات في كل قصيدة فجعله عشرة ، وأخذ على نفسه ما يسميه البديعيون « الحبك » وهو ابتداء كل بيت بحرف القافية وهي طريقة متأخرة لم يجر عليها المعري بل ابتدعها صفي الدين الحلي في القرن الثامن الهجري في مجموعة قصائد عددها تسع وعشرون قصيدة وعدد كل قصيدة تسعة وعشرون بيتاً مدح بها الملك المنصور نجم الدين بن أرتق، وأسماها :« درر النحور في امتداح الملك المنصور »وقدمها إليه سنة ٧٠١ للهجرة مع قصيدة جاء فيها :

أهدي قلائد أشعار فرائدها در نهضت به من أبحر عمق
تسع وعشرون إذ عدت قصائدها ومثلها عدد الأبيات في النسق
لم أقتنع بالقوافي في أواخرها حتى لزمت أواليها فلم تعق

وإنه لمن الخير أن ينشر مثل هذا الديوان حتى يُنفىَ عن حكيم المعرة في عهد يحيي فيه العالم العربي عيده الألفي، ويعمل على نشر كل ما قيل فيه . فللناشر ولمجلة المقتطف كل الشكر على ذلك .

الاسكندرية **خليل شيبوب**

— ٢ —

عرفت من أحد علماء العربية مشافهة أن المخطوط ليس عليه تاريخ يعين زمانه ، وأن بهِ مقدمة قصيرة ، وأن الخط المكتوب بهِ بقلم النسخ القريب من خطوط القرن العاشر فما بعده .

أما المقدمة القصيرة فقد نشرتها المقتطف ، وهي ليست من أسلوب أبي العلاء بسبيل . فإن عبارات التحميد فيها ليست مما جرى عليهِ المعري في مقدمة « سقط الزند » ، ومقدمة « لزوم ما لا يلزم » . فهو في هاتين المقدمتين بعيد عن التحميد ، وإن كان يختمهما بطلب التوفيق من الله . أضف إلى هذا ورود لفظة « أشغل » وهي لغة رديئة في « شغل » .

وهناك أمور تجعل القارئ في شك مريب من نسبة هذا الديوان إلى أبي العلاء المعري . وقد يكون « لأبي علاءٍ معريٍّ » آخر ممن ولدوا بالمعرة واشتركوا مع شاعرنا المشهور في الكنية والنسبة وعاصروهُ أو تأخروا عنه ، مثل أبي العلاء بن أبي الندى ، وأبي العلاء أحمد بن أبي اليسر ، وأبي العلاء بن عبد الله بن المحسن وغيرهم .

ومما يحمل على الشك في نسبة هذا الديوان إلى شاعرنا المعري التنوخي أمور منها :

(١) أن طريقته التي التزمها من حبك أول البيت وآخره هي طريقة متأخرة لم تكن معروفة في عهده . والمتتبع لتطور الشعر العربي يلاحظ أن « الحبك البديعي » لم يظهر قبل عصر « صفي الدين الحلي » من شعراء القرن الثامن (٦٧٧ — ٧٥٠ هـ) . ولعلَّ « الحلي » أول من استعمل « الحبك » في شعره . وكان ذلك في قصائده المعروفة « بالأرتقيات » التي مدح بها المنصور أحد ملوك الدولة الأرتقية بماردين . على أن طريقة الحبك هذه لم تجد لها — بعد صفي الدين الحلي — سوقاً رائجة عند الشعراء وعلماء البديع . فان تقي الدين بن حجة الحموي (٧٦٧ — ٨٣٧ هـ) لم يشر إليها في « بديعيته » ولا في شرحها المعروف (بخزانة الأدب) مع أنهُ أورد فيها مائة واثنين وأربعين نوعاً من البديع . ولعل هذا يدل على أن تلك الطريقة غير متأصلة في أدبنا .

ولقد قال — وقد يقول قائل — إن الأخذ « بالحبك » والتزامه والتزام العدد نوع من « لزوم ما لا يلزم » الذي أخذ أبو العلاء بهِ نفسه في كثير من شعره . ولكن الرد على هذا أن التزام ما لا يلزم هو شيء شرحه المعري في مقدمة اللزوميات شرحاً فائضاً . وهو شيء يتعلق بالقافية فقط وما يتصل بها من الرويّ . أما أوائل الأبيات واتفاقها بعضها مع بعض

واتفاقها مع أواخر الأبيات ، والتقيد بعدد معين من الأبيات في كل قصيدة، فذلك ليس من لزوم ما لا يلزم في قليل ولا كثير .

(٢) هذا الديوان في الغزل وفيه صبابات وأشواق لم تعرف عن أبي العلاء المشهور . وليس معنى هذا أن أبا العلاء لم يتغزل قط . فله القافية التى أولها : « زارت عليها للظلام رواق » ، وله الضادية التي أولها : « منك الصدود ومني بالصدود رضا »

وأبو العلاء أعقلُ من أن يعنِّيَ نفسه بغزل متكلف، وأن يختص به ديواناً برمته . فقد صَحَّ له بعض الغزل والشوق الملحّ إلى المعرة ، كقوله وهو في الكرخ مخاطباً البرق :

فهل فيك من ماء المعرة قطرة   تغيث بها ظمآن ليس بسالي

(٣) يقول في المقدمة : إنّ هذا الديوان في التشوق إلى حلب ونواحيها . وليس فيه إلاّ بيتان اثنان فيهما إشارة إلى ذلك ، ذكرهما الأستاذ أسعد طلس في كلمته التي قدَّم بها بين يدي الديوان . على أن المعري في شعره الصحيح في الحنين إلى وطنه يصرّح بذكر المعرة ولا يذكر « حلب » كما تقول مقدمة الديوان . ومن شعره في المعرة غير ما أوردته سابقاً قوله:

سرى برق المعرة بعد وهن   فبات برامةٍ يصف الكلالا

(٤) في الديوان أخطاء في اللغة والنحو نعجب من صدورها من أبى العلاء المعروف بعلمه الواسع . وفيه تساهل وتجوّز لم يعرف في عصر أبى العلاء . فهو يقول : « وقلبي إلى نحو الأحبة مجبذ» . والصحيح أنها مجبوذ بمعنى مجذوب . لأن الفعل ثلاثي لا رباعي . ويقول: « فما استنشقتها الريح إلاّ وهبت » والواو هنا بعد إلاّ لحن لا يفوت على مثل أبي العلاء . قال تعالى : « ما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزئون »

ويقول: «قفوا وانصفوا» بهمزة الوصل، والصحيح قطع الهمزة لأن الفعل رباعي . وكان الأولى أن يقول:«قفوا أنصفوا» بحذف واو العطف ليتم القطع. ثم يقول:«وما المبتلي والمستريح سواءٌ» برفع سواء . والأولى نصبها على لغة الحجازيين الغالبة ، لا رفعها على لغة تميم.

(٥) في الديوان تعابير ليست لأبى العلاء ولكنها لشعراء قبله مشهورين . والمعروف أن المعري كان حريصاً في أخذه معتزّا بتفرده في تعبيره.

فقوله: «موعدك الحشر» من الهذلي في رائيته الفاتنة . وقوله:«زنت أعين منا وعفت ضمائر» من قول الحمداني : « لقد كرمت نجوى وعفت ضمائر » .

وقوله : «عشيات أيام الحمى» من قول شاعر الحماسة : « فليست عشيات الحمى برواجع »

وقوله : « وحراس عليّ حراص » من قول ابن حجر الكندي :

تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً   عليّ حراصاً لو يشرّون مقتلي

(٦) في الديوان تعبيرات ركيكة واستعارات وتشبيهات سخيفة أو غير مألوفة في عصر المعري . كقوله :

ذوائبه مسك ثناياه لؤلؤ   وخداه تبر والعذار زمرذ

فالخدود تشبه بالورد. والعذار يشبه بالنمل أو النبت الناجم ولا يشبه بالزمرذ . ثم كقوله :

غرير شممت منه فاه بسُحْرةٍ   فقلت له هل أنت للمسك ماضغ ؟

يريد أنه عَذْب المقبَّل ، طيب رائحة الفم . والتأليف هنا سخيف .

ومن التأليف الركيك قوله :

جلاء همومي طيفكم يوضح الدجى   وإلاّ فأنفاس الصبا تتأرج
وقوله : جميلاً فما فعل الجميل بضائع   ولاسيما في الصب والصبّ أحوجُ

ومن الاستعارات السمجة قوله :

رشا صام عُلْوا فادعت يثرب الحشا   وأفطر سفلاً فادعت ردفه مصر

(٧) في الديوان تذلل في الغزل ، وهذا ليس بأخلاق المعري أشبه . وكلمة الذل والتذلل تدور في هذا الديوان مرّات كثيرة كأنها مضروبة على صاحبه ! فهو يقول : « طباعي أبت إلاّ التذلل في الهوى » ويقول : « رأى ذلتي في العشق فاعتز واعتدى » وغير ذلك .

الحق أن هذا الغزل المنسوب إلى أبي العلاء يشبه غزل ابن الفارض في تذلله حيث يقول:

مني له ذل الخضوع ومنهُ لي   عز المنوع وقوة المستضعف

ولعلّ ناظم هذا الديوان المريب متأخر جرى فيه مجرى « عمر بن الفارض » في غزله الصوفي .

(٨) في بعض أبيات هذا الديوان رقة ذائبة أراها كثيرة على أبي العلاء المعري الزاهد المخشوشن حتى في لفظهِ ... كقوله :

أصابت فؤادي أسهم اللحظ إذ رمت   فللهِ قتلى الأعين الشهداء
وكقولهِ : دفعت إليها في الوداع وديعة   وقلت احفظيها إنني سأعود

ولقد ورد في الديوان بعض التصحيف مما سها عنه الناشر مثل: « فها أنا أدري مثلهم وأساء » والصواب : أوذي . ومثل: « فقلت دعوني ميتاً إنما يسمع الحي » والشطر مكسور لزيادة كلمة ميتاً ، والصواب حذفها ليقوم الوزن . ورحم الله أبا العلاء .

محمد عبد الغني حسن

◆

٣ - المصادر

ما سلم من تواريخ البلدان العراقية

١ – تصدير

لم يبق لنا في الخزائن إلاّ نزر يسير من الكتب العربية . ولو حاولنا الموازنة بين ما أُلِّف من التصانيف منذ بدء التأليف في الإسلام حتى سنة ١٢٥٠ للهجرة مثلاً ، وما بقي من ذلك، لاختلّ بيدنا الميزان، ولتعذّر التعادل بين الموجود والمفقود . والأمثلة على ذلك تفوق الحصر . فأبو الريحان البيروني الذي أربت مؤلّفاته على مائة وعشرين مؤلفاً ، بين مجلّد ورسالة ، لم يتّصل بنا منها سوى عشرين ، ثمّ إنّ المطبوع من هذا العدد الأخير لا يتعدّى عدد أصابع اليد الواحدة .

وكذلك إسحق بن إبرهيم الموصلي ، فقد ذكر له ابن النديم نحواً من أربعين كتاباً، فأين هي الآن ؟ ومن يصدق أنها أصبحت اليوم أسماءً بلا مسمّيات ؟

وهشام بن محمد بن السائب الكلبي أثبت ابن النديم أسماء مؤلفاته ، فإذا هي قد جاوزت مائة وأربعين تأليفاً . فأين نحن من ذلك التراث الأدبي ؟ والمعروف منها في عصرنا لا يزيد على الثلاثة ؟

ومثل هذا في ذكر التآليف شيء كثار ، نخشى أن نُمعن فيه إلى أكثر ممّا ذكرنا ، فنسئِم به القرّاء وهو مما نتحاماه.

٢ — البلدان العراقية

ولقد نالت البلدان العراقية حظّاً حسناً وعنايةً فائقة عند قدماء المؤلّفين . فصنّفوا الكتب في أغلبها ، باحثين عن خِططها وحوادثها وأخبار رجالها . ولا نُجانب الصواب إذا ما قلنا إنّ المؤرخين لم يدَعوا مدينةً عراقية ذات شأن ، إلاّ عُنوا بتدوين تاريخها فإربل والأنبار والبصرة وبغداد وتكريت والحيرة وسامراء والكوفة والموصل وواسط

وغيرها ... كل هذه المدن عثرنا في المراجع المختلفة على أسماء تواريخها (١) . ونضيف إلى ما تقدم أنّ أغلبها لم يُصَنَّف فيه كتابٌ واحدٌ فحسب ، بل كان لبعضها ثلاثة كتب أو خمسة أو عشرة أو عشرون أو ثلاثون أو ما يزيد على ذلك .

٣ — سبيلنا في هذا البحث

وقد حاولنا في هذا المقال أن نستقصي ذكر ما انتهى إلينا خبره وما وقع إلينا من هاتيك المؤلّفات الموضوعة منذ أوائل التأليف في الإسلام حتى سنة ١٢٥٠ للهجرة (١٨٣٤ م) ، مشيرين إلى المطبوع منها والمخطوط . فإن كان مطبوعاً ذكرنا محل طبعه وسنته واسم ناشره إلى غير ذلك من البيانات الضرورية . وإن كان مخطوطاً دللنا على نسخه ومظانها على قدر ما أتيح لنا من الوقوف عليه ، ووصفناها بما يناسب المقام . ولم نغفل عن تعيين سني وفيات المؤلفين ولا عن ذكر المراجع (٢) التي تطرّقت إليّ أخبارهم . هذا وقد راعينا في ترتيب المدن التسلسل الهجائي في أسمائها ، ورتّبنا أسماء المؤلفات ذاتها في هذا المقال بحسب قدمها ، الأقدم فالقديم والحديث فالأحدث .

أما المؤلفات القديمة التي ضاعت بمرور الأيام ، فإنها لا تدخل في نطاق بحثنا هذا ، كما أننا لم نتكلّم على ما صنّف من تواريخ هذه المدن بعد سنة ١٢٥٠ للهجرة . فلهذه ولتلك حديثٌ طويل ربما نعود اليه في فرصة أخرى .

* * *

﴿ البصرة ﴾ : الكتب المؤلفة في تاريخها وأخبارها ورجالها ، ناهزت عدّتها عشرين كتاباً ، لا نعرف منها اليوم سوى :

١ — أخبار الوافدين من الرجال من أهل الكوفة والبصرة والوافدات على معاوية ابن أبي سفيان : جمعهُ أبو الوليد العباس بن بكّار الضبّي (٣) ، المتوفى بالبصرة سنة ٢٢٢ هـ رواية أبي القاسم التنوخي ، عن أحمد بن عبد الله الدوريّ ، عن شيوخه ، عنه .

لم يرد ذكر هذا الكتاب في كشف الظنون . وقد وقفنا على خبر نسخةٍ منه في خزانة

---

(١) للمؤلفين المحدثين تصانيف في تواريخ هذه المدن العراقية : إربل ، البصرة ، بغداد ، تلكيف ، الحلة ، الحيرة ، سامراء ، العمارة ، كربلاء ، الكوفة ، الموصل ، النجف .

(٢) كثير من هذه المراجع يتكرر ذكرها في هوامش هذا المقال . وسندون عناوينها كاملة في المرة الاولى ومختصرة فيما يلي ذلك

(٣) انظر ترجمته في لسان الميزان لابن حجر العسقلاني (٣ : ٢٣٧ — ٢٣٨)

كتب الأسكوريال (١) قرب مدريد ، ضمن مجموعٍ رقمه ٤٦٧ (الورقة ٧٣ — ١٠١ منه) وهو غير مطبوع .

٢ — أخبار النحويين البصريين : لأبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي ، المتوفى سنة ٣٦٨ هـ . قال في أوّله إنه « كتاب فيه أخبـار مشاهير النحويين ، وطرف من أخبارهم ، وذكر أخذ بعضهم عن بعض ، والسابق منهم إلى علم النحو » .

وقد احتوى الكتاب بعد المقدمة ، على أخبار عشرة من أولئك النحاة البصريين ، وهم : أبو زيد والأصمعيّ وأبو عبيـدة والجرْميّ والمـازنيّ والتوزيّ والزياديّ والرياشيّ والسجستانيّ والمبرّد .

عُنيَ بتحقيـقه ونشره المستشرق فرتس كرنكو F. Krenkow عن نسـخةٍ في إستانبول (٢) ، كتبت سنة ٣٧٦ هـ فهي قريبٌ عهدها جـدًّا من عصر المؤلف . طبع في بيروت سنة ١٩٣٦ (المطبعة الكاثوليكية ، ١١١ صفحة صـغيرة المتن ، معها ٣ صفحات مصوَّرة بالشمس ، وفيها ٩ صفحات لمقدمة فرنسية للناشر)

ترجمة السيرافي في : الفهرست لابن النديم (ص ٦٢ — ٦٣ فلوجل) ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٧ : ٣٤١ — ٣٤٢) ، ونزهة الألبّاء للأنباري (ص ٣٧٩ — ٣٨٢ طبعة سنة ١٢٩٤ هـ) والمنتظم لابن الجوزي (٧ : ٩٥) ، ومعجم الأدباء لياقوت (٣ : ٨٤ — ١٢٥ مرجليوث) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (١ : ١٨٣ بولاق ١٢٧٥ هـ) ، والبداية والنهاية لابن كثير (١١ : ٢٩٤) وبغية الوعاة للسيوطي (ص ٢٢١ — ٢٢٢) ، وشذرات الذهب لابن العماد (٣ : ٦٥—٦٦) . وفي كتاب الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (١ : ١٢٩ وما بعدها) تقريظٌ له ونعتٌ لمعارفه .

٣ — منظومة في آل أفراسياب : للشيخ ياسين بن حمزة بن أبي شهاب البصري . والأسرة التي وُضعت لها هذه القصيدة ، تنتسب إلى أفراسياب الديريّ (نسبة إلى الدير ، موضع في شمالي البصرة) المتوفى سنة ١٠١٢ هـ ، وكان تولى أمارة البصرة سنة ١٠٠٥ هـ ، في عهد السلطان العثماني مراد الثالث . من هذه المنظومة نسخة خطّية في خزانة الأستاذ عباس العزاوي ببغداد .

---

(١) Derenbourg: Mss. Ar. Escur. (Vol. I. Paris, 1884, p. 311, No 467, 5-6)

(٢) أفادني الدكتور مصطفى جواد ان في خزانة الجامعة المصرية بكلية الآداب نسخة من هذا الكتاب

٤ — زاد المسافر ولهنة (١) المقيم والحاضر فيما جرى لحسين باشا بن أفراسياب حاكم البصرة : تأليف الشيخ فتح الله بن علوان الكعبي ، المولود سنة ١٠٥٣ والمتوفى بعد سنة ١٠٩٠ هـ . يتناول هذا الكتاب أخبار البصرة وأحداثها في أواخر المائة الحادية عشرة للهجرة (١٦٤٥ — ١٦٦٥ م) . نشره خلف شوقي أمين الداودي (مطبعة الفرات — بغداد ١٩٢٤ ، ٥٦ ص) . أما مؤلف الكتاب ، فقد دوّن الناشر ترجمته في صدر الكتاب وأورد شيئاً من شعره .

٥ — سبائك العسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد : للشيخ عثمان بن سند البصريّ المتوفى ببغداد سنة ١٢٤٢ هـ ، وقيل في سنة وفاته غير ذلك

في هذا الكتاب ترجمة الشيخ أحمد المذكور ، المتوفى سنة ١٢٢٤ كما أن فيه تراجم أعيان البصرة خاصة ، في أوائل المائة الثالثة عشرة للهجرة ، هذا إلى ما تضمنه من تراجم رجال من البحرين والكويت ونجد والبلاد العراقية . ألفّهُ ابن سند لأولاد الشيخ أحمد ، وكانوا خمسة ، وقد خصّ كلاًّ منهم بترجمة (انظر الصفحة ١٠٧ — ١١٥ من السبائك) ، وذكر أخبار أصحابهم معهم . وعبارات الكتاب مسجّعة كلها ، يتخلّلها أشعار كثيرة . طبع بمطبعة البيان في بمبي سنة ١٣١٥ هـ في ١٢٠ صفحة .

أما ابن سند ، مؤلف الكتاب ، فقد دوّن ترجمته غير واحدٍ ، منهم : كاظم الدجيلي (لغة العرب ٣ (١٩١٣) ص ١٨٠ — ١٨٦) ، ومحمود شكري الآلوسي (المسك الأذفر في تراجم علماء بغداد في القرن الثاني عشر والثالث عشر . ص ١٤١ — ١٤٦) والأب لويس شيخو اليسوعي (الآداب العربية في القرن التاسع عشر ١ : ٩٤) .

* * *

﴿ بغداد ﴾ : أما المؤلفات الموضوعة في تاريخ بغداد ، فكثيرة جدًّا تنيف على أربعين مؤلفاً ، منها ما هو في مجلدات كثيرة . والذي سلم منها على ما نعلم :

١ — كتاب بغداد : لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر المعروف بطيفور ، المتوفى سنة ٢٨٠ هـ (طالع ترجمته في الفهرست ص ١٤٦ ، وتاريخ بغداد للخطيب ٤ : ٢١١ — ٢١٢ ، ومعجم الأدباء ١ : ١٥٢ — ١٥٧) . وهذا الكتاب أقدم تاريخ وضع لمدينة بغداد (٢) لم يسلم من آفات الدهر سوى جزئه السادس ، كان محفوظاً في خزانة المتحف البريطاني (٣)

---

(١) الاهنة : ما يتعلل به قبل الغداء (٢) كشف الظنون (٢ : ١١٩ فلوجل)

(٣) Cat. Cod. Man. Or. Mus. Br. (London, 1846, p. 545; No. 1264

بلندن، فاستخرجه المستشرق هنس كلر H. Keller واستنسخه باليد وطبعه على الحجر، ثم نقله إلى الألمانية وعلق عليه (ليبسك ١٩٠٨ م، ٣٨٢ ص للمتن و ١٨٥ للترجمة) . وكان المستشرق المذكور قد نشر جانباً من هذا الجزء (الورقة ١ — ٢٦ من المخطوط) في أطروحته التي وضعها بصدد هذا السفر التاريخي، وطبعها في ليبسك سنة ١٨٩٨ (٢٧ ص للمتن و ٦٠ ص للترجمة والمقدمة والتعليقات بالألمانية) .

إن الأجزاء الخمسة الأولى من هذا الكتاب، لا تزال ضائعة (١) . وهذا الجزء السادس يتناول أخبار المأمون منذ شخوصه إلى بغداد في سنة ٢٠٤ هـ (وهي سنة مولد المؤلف) إلى وفاة الخليفة المذكور عام ٢١٨ هـ، مع ما ينوط بأحوال زمانه، وذكر الأدباء والشعراء الذين اختلفوا إلى مجلسه .

ولسنا نعلم علم اليقين كم كان عدد أجزاء هذا الكتاب الجليل . غير أن ابن النديم (الفهرست . ص ١٤٧) ذكر أنهُ ضمنهُ الأخبار إلى آخر أيام المهتدي (٢) .

فالأجزاء التي قبل السادس، تناولت على ما نظن، أخبار خمسة من خلفاء بني العباس وهم : المنصور (باني بغداد) والمهدي والهادي والرشيد والأمين . فهل كان المؤلف قد خصَّ كل خليفة منهم بجزءٍ من كتابه ؟

ثم يجيء الجزء السادس وهو الذي طبع، فيستوفي أخبار المأمون كما أسلفنا . ومن ثمة لا نشك في أن الكتاب يحوي بضعة أجزاء أخرى، فيها أخبار من تولى زمام الخلافة بعد المأمون، وآخرهم المهتدي (٣) .

وقد ذكر ابن النديم (الفهرست. ص ١٤٧) . أن عُبَيد الله بن أحمد بن أبي طيفور « زاد على كتاب أبيه أخبار المعتمد وأخبار المعتضد وأخبار المكتفي وأخبار المقتدر، ولم يتمه » ولكن هذا التاريخ لم ينته إلينا مع الآسف وإنما وقفنا على نقول منهُ في كتاب بدائع البدائه لابن ظافر الأزدي (ص ٣٦ و ٤١ و ١١٩ بولاق ١٢٧٨ هـ) ومعجم الأدباء (١ : ١٥٣) ولسان الميزان (١ : ١٩٠) .

٢ — تاريخ بغدادُ مدينة السلام : للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، المتوفى سنة ٤٦٣ هـ . طبع هذا الكتاب بكماله في القاهرة (مطبعة السعادة، سنة ١٩٣١ في

---

(١) وقفنا على نقل من أحدها في تاريخ بغداد للخطيب الآتي ذكره (راجع مقدمته الخطابية، ص ٧٤ طبعة سلمون)

(٢) دامت خلافته نحواً من سنة، وانتهت في شهر رجب سنة ٢٥٦ هـ (٣) هؤلاء الخلفاء سبعة وهم المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي. وكثيراً ما تمنينا أن تكون هذه الأجزاء بيدنا، لنستدل بها على ما كانت عليه بغداد في عهد انتقال الخلفاء العباسيين منها الى مدينة سامراء.

١٤ مجلداً(١) ، تبلغ في مجموعها نحو ٦٨٠٠ صفحة . ويدور هذا التاريخ على أمرين :

الأول : خِطَط بغداد القديمة . وقد تكلّم فيه على بناء مدينة بغداد ، وتحديدها وذكر محالّها وطاقاتها وسككها ودروبها وأرباضها وقصورها ومساجدها وأنهارها الجارية بين الدور والمساكن وجسورها ومقابرها .

الثاني : رجال بغداد أو مَن طرأ عليها من بلدانٍ شتّى . وقد ترجم منهم ٧٨٣١ شخصاً وهذه التراجم تكاد تكون مرتّبة فيه على حسب حروف الهجاء ، غير أنهُ ابتدأ بالمحمّدين ثم بالأحمدين ، ثم اتبع حروف المعجم .

وكان المستشرق جورج سلمون (G. Salmon) قد نشر القسمَ الأوّل المتضمّن خطَط بغداد من تاريخ الخطيب ، في باريس سنة ١٩٠٤ ، مترجماً إياه إلى الفرنسية بعنوان . L'Introduction Topographique à l'Histoire de Baghdad (٩٣ ص للمتن ، و ٢٠٩ ص للترجمة والمقدمة والتعليقات والفهارس) .

وقد ألّف الملك المعظّم أبو المظفّر عيسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب الحنفي ، المتوفّى سنة ٦٢٤ ﻫ ردًّا على تاريخ الخطيب فيما يتعلّق بفقه الإمام أبي حنيفة النعمان الذي ورد في المجلّد الثالث عشر منه . وعنوان هذا الرد « السهم المصيب في كبد الخطيب » . طُبع في القاهرة سنة ١٩٣٢ (مطبعة السعادة ، ١٨٤ ص) وللجلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ ﻫ ردّ آخر بعنوان « السهم المصيب في نحر الخطيب » ذكره صاحب كشف الظنون (٣ : ٦٣٢) ولا نعلم أنه طُبع .

ولتاريخ بغداد للخطيب ، « ذيول » و « مختصرات » متعدّدة ، صنّفها جماعة ممّن جاء بعده من المؤرّخين ، وسنذكر ما بقي لنا منها في سياق هذا المقال .

ترجمة الخطيب في : تاريخ ابن عساكر (التهذيب ١ : ٣٩٨ — ٤٠٠) ، والمنتظم (٨ : ٢٦٥ — ٢٧٠) ، ومعجم الأدباء (١ : ٢٤٦—٢٦٠) والوفيات (١ : ٣٧—٣٨) ، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣ : ١٢ — ١٦) ، والبداية والنهاية (١٢ : ١٠١ — ١٠٣) وطبقات الشافعية للمصنف (ص٥٧—٥٨) ، والشذرات (٣ : ٣١١—٣١٢) .

٣ — تذييل تاريخ بغداد : لأبي سعد السمعاني صاحب كتاب الأنساب ، المتوفّى سنة ٥٦٢ . وقد ضاع أكثره في ما أظنّ ، وبقي قليلٌ منه أدخله البنداري في تاريخه الذي

---

(١) ذكر الحاج خليفة (كشف الظنون ٢ : ١١٩) أن نسخة منه بخط المؤلف كانت في وقف المستنصرية أربعة عشر مجلداً .

ألفه لبغداد على ما سيجيء خبره ، وشيء من مختصره الذي لابن منظور كما سنذكره أيضاً. وكان السمعاني قد ذيّل بكتابه هذا « تاريخ بغداد » للخطيب وجرى فيه على أسلوبه ، وجعله في خمسة عشر مجلداً على ما ورد في المظان التاريخية. (١)

والسمعاني هذا ، عَلَم من أعلام التأليف في الإسلام ، وتجد ترجمته في المنتظم (١٠ : ٢٢٤ — ٢٢٥) ، واللباب في الأنساب لابن الأثير (١ : ٩ — ١١) ، والوفيات (١ : ٤٢٦ — ٤٢٨) ، وتذكرة الحفاظ (٤ : ١٠٧ — ١١٠) ، والبداية والنهاية (١٢ : ٢٥٤) ، وطبقات السبكي (٤ : ٢٥٩ — ٢٦٠) ، والشذرات (٤ : ٢٠٥ — ٢٠٦)

٤ — مُعجم شيوخ بغداد ، ويُعرف بالمشيخة البغدادية : لأبي طاهر السلفي الأصبهاني الشافعي ، نزيل الإسكندرية ، المتوفّى سنة ٥٧٦ هـ . منه نسخة في خزانة الأسكوريال (٢) كتبت سنة ٥٩٤ هـ . قوامها ٢٤٧ ورقة . (٣) وهذا الكتاب لم يطبع .

وللاطلاع على ترجمة أبي طاهر السلفي راجع : الوفيات (١ : ٤٣ — ٤٤) ، وطبقات السبكي (٤٠ : ٤٣ — ٤٨) ، ولسان الميزان (١ : ٢٩٩ — ٣٠٠) ، وتذكرة الحفّاظ (٤ : ٩٠ — ٩٦) ، والشذرات (٤ : ٢٥٥) .

٥ — ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد : لأبي عبد الله محمد بن سعيد المعروف بابن الدبيثي (٤) الواسطي ، المتوفّى سنة ٦٣٧ هـ . جعله ذيلاً على تاريخ بغداد لأبي سعد السمعاني الذي ذيَّل به تاريخ بغداد للخطيب .

وقد ذكرنا أنّ غالب تاريخ بغداد للسمعاني قد نالته يد الضياع . أما تاريخها لابن الدبيثي ، فالذي سلم منه (٥) بضعة مجلدات ، تفرقت في خزائن الكتب على الوجه التالي :

---

(١) كما في الوفيات (١ : ٤٢٧) وكشف الظنون (٢ : ١١٩) وذكر صاحب تذكرة الحفاظ (٤ : ١٠٨) والشذرات (٤ : ٢٠٦) أن « الذيل على تاريخ الخطيب أربعمائة طاقة » .

(٢) وصفها ميخائيل الغزيري في فهرسته :
Casiri : Bibl. Ar. Hisp. Escur. (Vol. 2, Madrid 1770, p. 330, No. 1778)
وكذلك وصفها ليفي بروفنسال في فهرسته :
Levi-Provençal: Mss. Ar. Escur. (Vol. 3, Paris 1928. p. 281, No. 1783)

(٣) ذكر جرجي زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية ٣ : ٧١ طبعة سنة ١٩٣١) أنه في نحو مائة كراس .

(٤) الدبيثي ، نسبة إلى دبيثا (بفتح الدال على المشهور وقيل بضم الدال وآخره مقصور) من قرى واسط الحجاج بالعراق .

(٥) أشار السخاوي (الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ : ص ١٢٣) إلى وجود نسختين من هذا الكتاب في مكة وثالثة عند السبط . لكننا لا ندري اليوم مآل هذه النسخ الثلاث !

(أ) المجلّد الأول : في خزانة شهيد علي باشا في إستانبول .(1) رقمه ١٨٧٠ . أوّله : « الحمد لله الأوّل بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء ... الخ » . وجاء في آخره : « وقع الفراغ منه في غرّة جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ ، كتبهُ عبدالرحيم بن عبدالخالق الشافعي الدمشقي » فتكون هذه النسخة قد كُتبت قبل وفاة المؤلّف بسنتين .

ومن المجلّد الأوّل أيضاً نسخة بدار الكتب المصرية سُمعت على ابن الدبيثي سنة ٦١٧ هـ ، وقد صوّر منها المجمع العلمي العربي نسخة لخزانته . أخبرني بذلك الدكتور مصطفى جواد.

(ب) المجلّد الأوّل أيضاً : في الخزانة الوطنية بباريس . رقمه ٥٩٢١ (٢) وهو مكتوب بخط تعليقي رديء في ٢٩٨ ورقة . وقد انتسخ الدكتور مصطفى جواد نسخاً لنفسه على هذا المجلد وما سنذكره من مجلداته التي بدار الكتب الوطنية بباريس .

(ج) المجلد الثاني : وهو في باريس أيضاً ، رقمه ٢١٣٣ (٣) يبتدئ باسم أحمد ، وينتهي بترجمة الحجاج بن علي . وقوامه ٢١١ ورقة . ويظن أن هذه النسخة كتبت في المائة السابعة للهجرة ، أي في عصر المؤلف .

(د) المجلد الثالث في باريس أيضاً . رقمه ٥٩٢٢ (٤) ، وقد كتب سنة ٦٣٦ للهجرة ، أي قبل وفاة المؤلف بسنة واحدة ! قوامه ٢٢٣ ورقة .

(هـ) المجلد الثالث أيضاً : في خزانة كتب جامعة كمبردج (برقم ١٦٩ Add. 2924)(٥) يبدأ بمواصلة حرف العين في سياقة التراجم ، وفيه ترجمة أحدهم المتوفى سنة ٦١٥ هـ وهو من معاصري المؤلف . يقوم هذا المجلد على ١٨٥ ورقة ، وخطه نسخي ، ولعلّه كُتب في المائة السابعة للهجرة . جاء في آخره : « انتهى حرف العين ، ويليه المجلد الرابع وأوله حرف الغين » .

إن هذه المجلدات المتبقية من تاريخ ابن الدبيثي غير مطبوعة ، وهي تتناول تراجم

---

(١) أفادني وصف هذه النسخة الاستانبولية ، الاستاذ عباس العزاوي ، الذي أتيح له الوقوف عليها .

(٢) Blochet : Cat, Coll. Mss. Or., Scheffer (Paris, 1900 p. 21)

وكذلك : Blochet : Cat. Mss. Ar. Nouv. acq. 1884-1924 (Paris, 1925 p. 140)

(٣) De Slane : Cat, Mss. Ar. (Paris, 1895 p. 378)

(٤) Blochet : Cat, Mss. Ar, (p. 140)

(٥) Browne : A. Hand-List Muh, Mss. Univ, Cambr, (Cambridge, 1900. pp. 26-27)

رجال بغداد ، ممن لم يرد لهم ذكرٌ في المؤلفات التي سبقت الإشارة اليها .

وترجمة الواسطي : في الوفيات (١ : ٧٤٤) ، وطبقات السبكي (٥ : ٢٦) ، والحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة لابن الفوطي (ص ١٣٥—١٣٦) وتذكرة الحفاظ (٤ : ١٩٩ — ٢٠٠) وغاية النهاية في طبقات القرّاء للجَزَري (٢ : ١٤٥ الرقم ٣٠٣٠) ، والشذرات (٥ : ١٨٥ — ١٨٦) .

٦ — مختار مختصر تاريخ بغداد لأبي بكر الخطيب : المختصر المذكور هنا لأبي عليّ يحي بن عيسى بن جزلة الحكيم البغدادي المتوفى سنة ٤٧٣ وقيل ٤٩٣ هـ . و « المختار » هذا للقاضي أبي اليمن مسعود بن محمد بن أحمد بن حامد ، ولم نتحقق سنة وفاته . منه نسخة في خزانة المتحف البريطاني (١) جاء في أولها : « الجزء الأول من مختار مختصر كتاب تاريخ بغداد لأبي بكر أحمد بن عليّ الخطيب رحمة الله عليه ، اختيار أبي علي يحي بن عيسى بن جزلة الحكيم البغدادي رحمه الله » .

وفي مقدمته يقول : « وهذا الكتاب الذي صنّفه الشيخ أبو بكر أحمد بن عليّ بن ثابت الخطيب الحافظ البغدادي رحمه الله وسماه تاريخ بغداد ، كتابٌ جليلٌ في هذا العلم نفيسٌ ، وقد تعب فيه وسهر وأطال الزمان ، والله تعالى يثيبه ويحسن إليه . إلا أنهُ طويل ، وللإطالة آفات أقربها الملل ، والملل داعيةُ الترك . وقد استخرت الله تعالى ، واختصرته ، وذكرتُ أسماء الرجال الذين ذكرهم على ترتيبه ، وما استحسنته من خبر وحكاية وشعر وحديث نقلتهُ . فالأغراض تختلف ، ولهوى القلوب سريرةٌ لا تُعلم . اختصره القاضي أبو اليُمن مسعود بن محمد بن أحمد بن حامد رحمه الله ، لنفسه ولمن عساه يرغب في الاختصار أو نقل شيء منه » اهـ .

وجاء في آخره : « تمّ المختار من مختصر كتاب تاريخ بغداد ، بعون الله تعالي ، في العشرة الأولى من شهر رمضان المبارك سنة ستة (كذا . والصواب ستّ) وسبعين بعد الألف والمائتين من هجرة سيّد الثقلين . . . على يد العبد الفقير الراجي رحمة ربه العليّ ، محمد عليّ » اهـ .

وترجمة المؤلف: في المنتظم (٩ : ١١٩) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي اصيبعة (١ : ٢٥٥) ، والكامل لابن الأثير (١٠ : ١١٢ بولاق ١٢٩٠ هـ) ، وأخبار الحكماء للقفطي (ص ٣٦٥ — ٣٦٦ طبعة ليبسك) ، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري (ص ٣٣٩)

---

(١) Cat, Cod, Or, Mus, Brit. (p. 733-734, No 1625)

والوفيات (٢ : ٣٨٧ — ٣٨٨)، والمخطوطات العربية لكتبة النصرانية للأب لويس شيخو (ص ٦ و ٢٣٠)

٧ — ذيل تاريخ بغداد، ويسمى أيضاً التاريخ المجدد: للحافظ محبّ الدين محمد بن محمود المعروف بابن النجّار البغدادي، المتوفى سنة ٦٤٣ هـ. وهو ذيلٌ عظيم على تاريخ بغداد للخطيب. ذكر ابن كثير (البداية والنهاية ١٣ : ١٦٩) أنه أكمله في ستة عشر مجلداً. وقال الحاج خليفة (كشف الظنون ٢ : ١٢٠) إنهُ يتمّ في ثلاثين مجلداً، وإنهُ رأى المجلد السادس عشر منهُ في حرف العين، يذكر تراجم الرجال كالطبقات. وقال ياقوت الحموي (معجم الأدباء ٧ : ١٠٣) إن لابن النجار «التصانيف الممتعة، منها تاريخ بغداد ذيل به تاريخ مدينة السلام للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، واستدرك فيهِ عليه. وهو تاريخ حافل دل على تبحره في التاريخ وسعة حفظه للتراجم والأخبار».

وحكى السخاوي (الإعلان بالتوبيخ. ص ١٢٣) أنهُ وقف على نسخة منه في سبعة عشر مجلداً، بخطِّ الجمال الظاهري في الأوقاف التي بجامع الحاكم، وأن بعضه فقد. ترى أين اليوم هذه النسخة التي أشار إليها السخاوي؟

لقد ضاع أغلب تاريخ ابن النجار، وغاية ما انتهى الينا منهُ:

(ا) المجلد العاشر منهُ: في الخزانة الظاهرية بدمشق (١)، وهو في ٤٦٠ صفحة كبيرة، أوله ترجمة عبد المغيث بن زهير الحربي المتوفى سنة ٥٨٣ هـ، وآخره ترجمة علي بن الحسين القري الحنبلي (٢).

(ب) مجلد في باريس (٣)، رقمهُ ٢١٣١. لعلهُ أن يكون المجلد السادس عشر وجانباً من السابع عشر. وفيهِ تراجم الأشخاص من «علي بن محمد الدامغاني، إلى آخر العليين. ثم يبدأ بالعمرين، وينقطع في عمر بن محمد السهروردي (المدفون في بغداد) بعد أن يورد نحو ثلث ترجمته أو نصفها. ثم يقفز إلى حرف الفاء الذي من تراجمه «الفضل بن محمد ابن سعيد الحدّاد». كتب هذا المخطوط سنة ٧٤٨ للهجرة، وفيهِ ١٤٥ ورقة.

وقد انتسخ الدكتور مصطفى جواد عليهِ نسخة لنفسهِ، وفي آخرها ما نصهُ: «آخر

---

(١) قائمة مخطوطات الخزانة الظاهرية بدمشق (ص ٨٤، الرقم ٤٢) ومجلة المجمع العلمي العربي «١٢ (١٩٣٢) ص ٥٠٦، و ١٨ (١٩٤٣) ص ١٨٢»

(٢) حبيب زيات: خزائن الكتب في دمشق وضواحيها (ص ٧٧، الرقم ٤٢)

(٣) تكرم الدكتور مصطفى جواد بوصف هذه النسخة الباريسية، التي وقف عليها بنفسه وتوفر على مطالعتها واستنساخها.

المجلد الثالث والعشرين من الأصل من التاريخ المجدد لمدينة السلام وهو آخر المجلد الحادي عشر من هذه النسخة ، يتلوه أول المجلد الرابع والعشرين من الأصل، وأول الجزء « الفضل ابن محمد بن عبد الله العطار » . هذان المجلدان لما يطبعا .

وترجمة ابن النجار في : معجم الأدباء (٧ : ١٠٣ — ١٠٤) ، والحوادث الجامعة (ص ٢٠٥ — ٢٠٦) ، وطبقات السبكي (٥ : ٤١) وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (٢ : ٢٦٤ — ٢٦٥) ، وتذكرة الحفاظ (٤ : ٢١٢ — ٢١٤) ، والبداية والنهاية (١٣ : ١٦٩) والشذرات (٥ : ٢٢٦ — ٢٢٧)

٨ — مختار ذيل تاريخ بغداد للسمعاني : لجمال الدين عبد الله بن مكرّم بن منظور صاحب « لسان العرب » ، المتوفى سنة ٧١١ هـ .

وهذا « المختار » في تراجم رجال بغداد ، اختصرهُ ابن منظور من «ذيل تاريخ بغداد» لأبي سعد السمعاني الذي مرَّ بنا ذكره في الرقم ٣ .

ومن مختصره نسخة من المجلد الثاني في خزانة كمبردج[١] ، تبدأ بترجمة «محمد بن أبي بكر البردوي الصابوني» . وهي تتناول تراجم المحمدين ، ثم الأحمدين ، ثم الأسماء الأخرى مصنفة على حروف المعجم ، حتى تبلغ الحسينيين .

ومنهُ أيضاً نسخة في خزانة ليدن في هولندة ، برقم ١٠٢٣ [٢] .

وترجمة المؤلف في : فوات الوفيات (٢ : ٢٦٥) ، ونكت الهميان في نكت العميان للصفدي (٢٧٥ — ٢٧٦) ، والدرر الكامنة للعسقلاني (٤ : ٢٦٢ — ٢٦٤) ، وبغية الوعاة (ص ١٠٦) ، والشذرات (٦ : ٢٦) .

(٩) — تراجم علماء بغداد[٣] لأبي الخير نجم الدين سعيد بن عبد الله الدهلي البغدادي[٤] ، المتوفى سنة ٧٤٩ هـ . قال ابن حجر العسقلاني بحقه (الدرر الكامنة ٢ : ١٣٥) إنه «جمع التراجم لكثير من أعيان دمشق وبغداد» . ونحن لا نشك في أن هذه التراجم البغدادية المذكورة أعلاه ، هي التي أشار إليها ابن حجر ونقل منها ابن قاضي شهبة

---

[١] Palmer :Cat. Ar. Pers. Turk Mss. Lib. Trin. Col. (Cambridge, 1870 p. 152-153, No R, 13· 66)

[٢] De Goeje et Jurnboll : Cat. Cod. Ar. Bibl. Acad, Lugd-Bat (II, 1907 p· 110-111)

[٣] نبهنا الى هذا الكتاب الاستاذ المحامي عباس العزاوي .

[٤] ترجمته في : تاريخ علماء بغداد المسمى منتخب المختار للتقي الفاسي المكي (ص ٥٧ — ٥٨) والدرر الكامنة: (٢ : ١٣٤ — ١٣٥) .

في ذيل تاريخ الذهبي كما في ترجمة صفي الدين الحلي وعبد الرحمن الفاروثي من الذيل .

وكان الشيخ طاهر الجزائري (مجلة المقتبس ٢ سنة ١٩٠٧ ص ٣) قد وقف على نسخة خطية من هذه التراجم ، بيد أننا لا نعرف الآن شيئاً من أمر تلك النسخة .

١٠ — المستفاد من ذيل تاريخ بغداد : للحافظ أحمد بن أيبك بن عبد الله الحسامي الحسيني المعروف بابن الدمياطي المتوفى بمصر سنة ٧٤٩ هـ . وهو مختصر «ذيل تاريخ بغداد» لابن النجار (انظر الرقم ٧ من تواريخ بغداد) . ذكره جرجي زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية ٣:٧٥) ويعقوب سركيس (لغة العرب ٦ (١٩٢٨) ص ٣٥٦) . ولم يتطرق إلى ذكره صاحب كشف الظنون .

منه نسخة في دار الكتب المصرية بالقاهرة (١) في ثمانية أجزاء قوامها ٨٢ ورقة بخط المؤلف نفسه . والكتاب مجموعة تراجم روعي في كتابتها الاختصار ، تبتدئ بالمحمدين أما غيرهم فعلى حروف المعجم .

وترجمة ابن الدمياطي في : الدرر الكامنة (١ : ١٠٨) ، وذيل تذكرة حفاظ الذهبي لأبي المحاسن الحسيني الدمشقي (٥٤—٥٧) ، وذيل طبقات حفاظ الذهبي للسيوطي (ص ٣٥٥) .

١١ — تاريخ بغداد : للفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني (٢) ، المتوفى بعد سنة ٦٣٩ هـ . وهو معجم لتراجم مشاهير رجال بغداد ، جمع فيه تاريخ الخطيب وذيله للسمعاني وذيل هذا لابن الدبيثي ولم يزد إلاّ سطوراً . الموجود منه اليوم مجلده الأول ، في باريس برقم ٦١٥٢ Blochet, p. 198 ، وهو بخط مؤلفه ، كتبه سنة ٦٣٩ هـ بخط نسخي ، وفيه خرم ، وأوراقهُ الحالية تبلغ ١١٦ .

وقد انتسخ الدكتور مصطفى جواد عليه نسخة لنفسه لكنهُ لم يذكر المترجين في تاريخ الخطيب .

نقل عنهُ الأستاذ حبيب زيات (الخزانة الشرقية ٢ : ١٩ — ٢٠) شيئاً من ترجمة أحمد ابن إبراهيم بن أيوب المسوحي . وما زال هذا المجلد غير مطبوع .

١٢ — مناقب بغداد : طبع على غلافه أنهُ لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي

---

(١) فهرست الكتبخانة الخديوية (٥:١٥٠) ، وفهرست دار الكتب المصرية (٥:٣٤٤) .

(٢) هو مترجم الشاهنامة الترجمة العربية التي نشرها الدكتور عبد الوهاب عزام ، وصدرها بترجمة البنداري .

الشهير بابن الجوزي ، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ . والظاهر أنّ هـذا المطبوع ليس لابن الجوزي المذكور ، فقد ذكر سبط ابن الجوزي (مرآة الزمان ٨ : ٣١٢) أن لأبي الفرج المذكور « كتاب مناقب بغداد في مجلد » على حين أن هذا المطبوع لايعدو أن يكون رسالةً صغيرة. ومن ثمّـة نرى أنهُ مختصر للأصل .

وأول من تنبه إلى أن هذا المطبوع ليس لابن الجوزي هو الأستاذ يوسف غنيمة (لغة العرب ٤ سنة ١٩٢٦ ص ٢٧٤) استناداً إلى ما ورد فيه ، حيث يُـقرأ (في الصفحة ٣٤ من المطبوع) أن مؤلفه كان حيًّـا يرزق بعد سنة ٦٥٤ هـ . وعلى ذلك ، مال الأستاذ إلى أن الكتاب من تآليف الشيخ أبي محمد يوسف بن أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، المقتول في فتنة التتار في بغداد سنة ٦٥٦ هـ . فكأنه أراد أن يقول إن المؤلف كان ابناً لابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ .

وارتأى الأستاذ يعقوب سركيس (لغة العرب ٥ (١٩٢٧ ص ٢١٦ — ٢٢٤) ومجلة (المجمع العلمي العربي بدمشق ٨ (١٩٢٨) ٦٢٩—٦٣٢) ، ووافقه على ذلك الأستاذ عبدالله مخلص (مجلة المجمع ٩ سنة ١٩٢٩ ص ١١٨ — ١١٩) أنه تأليف جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي ، الذي قتل سنة ٦٥٦ هـ (١) . لأن اسمه ولقبـه وكنيته تتفق كل الاتفاق وما يماثلها في ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ . بيد أن المراجع الحالية التي بأيدينا لا تشير إلى أن لهذا المقتول سنة ٦٥٦ هـ كتاباً في هذا الموضوع .

وحاول الأستاذ عبـد العزيز الميمني الراجكوتي (مجلة المجمع ٩ : ١١٩ — ١٢٠) والأستاذ محمد راغب الطباخ (مجلة المجمع ٩ : ٤٣٩ — ٤٤٠) أن يثبتا صحة نسبة هـذا الـكتاب إلى ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ .

ويرى الدكتور مصطفى جواد (راجع : الجامع المختصر لابن الساعي . المقدمة ، ص يح ، والحاشية ١ من ص ٨٠) ، أن هذا الـكتاب من مختصرات ابن الفوطي المؤرخ البغدادي (٢) صاحب كتاب الحوادث الجامعة وغيره من التصانيف ، المتوفى سنة ٧٢٣ هـ ، بدليل أن مخطوطة الـكتاب كانت هي والحوادث الجامعة في مجلد واحدٍ ، مكتوبٍ بخطّ واحد في زمن واحد (٣)

---

(١) انظر خبره في الحوادث الجامعة . ص ٣٢٨

(٢) ترجمه محمد رضا الشبيبي في مجلة المعلم الجديد (٦ (١٩٤٠) ص ١ — ١٥) ، وترجمه مصطفى جواد في صدر طبعة كتاب الحوادث الجامعة (ص ١٤ — ٢١)

(٣) وهذا ما حققه نجيب هواويني الذي فحص عن المخطوطة الاصلية (وهي بدار الكتب المصرية ، برقم ١٣٨٣) وأبدى رأيه القاطع في رسالته التي بعث بها إلى الأب أنستاس ماري الـكرملي ، بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٩٣٤ وقد وقفني عليها يعقوب سركيس .

فإذا أمكن إثبات أن الكتابين هما بخطّ ابن الفوطي نفسه ، صحّ لنا عندئذٍ اعتبار ابن الفوطي ملخصاً لكتاب مناقب بغداد ومضيفاً إليه .

ومهما يكن من أمر مؤلفه ، فانّ هذا الكتاب ، على صغر حجمه ، ذو فائدة كبيرة ، لما تضمنه من الحقائق الثمينة عن خطط بغداد ومجمل أحوالها ، خاصة ما ورد فيه من المقتبسات الخطيرة الشأن التي نقلها عن كتاب « أخبار بغداد » لهلال بن المحسن الصابئ ، المتوفى سنة ٤٤٨ هـ ذاك الكتاب الذي ضاع ويا للأسف في ما ضاع من التآليف.

إن كتاب مناقب بغداد ، عُني بنشره الأستاذ محمد بهجة الأثري (مطبعة دار السلام - بغداد ١٣٤٢ هـ ، ٤٨ ص)

وترجمة ابن الجوزي في : مرآة الزمان (٨ : ٣١٠ — ٣٢٥ طبعة شيكاغو) والجامع المختصر لابن الساعي (٩ : ٦٥ — ٦٧) ، والوفيات (١ : ٣٩٥ — ٣٩٦) ، وتذكرة الحفاظ (٤ : ١٣١ — ١٣٧) ، وطبقات القراء (١ : ٣٧٥ الرقم ١٥٩٢) ، والشذرات (٤ : ٣٢٩ — ٣٣١)

١٣ — المختصر المحتاج إليه من تاريخ بغداد : للحافظ شمس الدين الذهبي ، المتوفى سنة ٧٤٨ هـ . اختصره من ذيل تاريخ بغداد لابن الدبيثيّ (انظر الرقم ٥ من تواريخ بغداد) وقد أتمّ اختصاره في سنة ٧٠٤ هـ وإليك ما قاله الحاج خليفة (كشف الظنون ٢ : ١٢٠) بصدده : « وأخذ شمس الدين محمد بن أحمد الحافظ الذهبي ، المتوفّى سنة ٧٤٨ ذيل ابن الدبيثي ولخّصه واختصره في نصفه » .

منه نسخة بخطّ المؤلف بدار الكتب المصرية [1] ، وهي في خمسة أجزاء تدخل في مجلّد واحد ، رقمه ٣٢٤ تاريخ ، وقوامه ١٣٢ ورقة .

والذهبي صاحب هذا المختصر ، من أشهر المؤرخين في الإسلام ، وممّن عرفوا بسعة التأليف . راجع ترجمته في فوات الوفيات (٢ : ١٨٣) ، وطبقات السبكي (٥ : ٢١٦ - ٢٢١) والدرر (٢ : ٩٦) ، والشذرات (٣ : ٣٩٥) ، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني (٢ : ١١٠ — ١١٢) .

١٤ — تاريخ علماء بغداد المسمّى منتخب المختار : للتقي محمد بن أحمد الفاسيّ ، المتوفّى سنة ٨٣٢ هـ . انتخبهُ من « المختار المذيَّل على تاريخ ابن النجار » لابن رافع السلامي ، المتوفّى سنة ٧٧٤ هـ . إنّ « المختار » لابن رافع قد ضاع على ما يُظَنّ . قال فيه

---

[1] فهرست الكتبخانة الخديوية (٥ : ١٤٥) ، وفهرس دار الكتب المصرية (٥ : ٣٣٥)

ابن حجر (الدرر ٣ : ٤٣٩) : « . . . وجمع ابن رافع ذيلاً على تاريخ بغداد لابن النجّار في ثلاث مجلدات أو أربع ، رأيتُ بعضه بخطّه » . وقال ابن العماد الحنبلي (الشذرات ٦ : ٢٣٤) إنَّ ابن رافع « صنّف ذيلاً على تاريخ بغداد لابن النجّار أربع مجلّدات ، وقد عُدِم هو والمعجم في الفتن » . وقال الجَزَري (طبقات القرّاء ٢ : ١٣٩) إنهُ « لو ذيَّل على تاريخ دمشق لكان أولى » !

أمّا منتخب المختار للفاسيّ ، وقد عني بنشره الأستاذ عبّاس العزّاوي (مطبعة الأهالي — بغداد ١٩٣٨ ، ٢٨٦ ص) . وهو يحتوي على مائتي ترجمة وترجمة لمن اشتهر في بغداد .

وترجمة الفاسي في : لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ لابن فهد المكي (ص ٢٩١-٢٩٧) والضوء اللامع للسخاوي (٧ : ١٨ — ٢٠) ، والشذرات (٧ : ١٩٩) ، والبدر الطالع (٢ : ١١٤) — وترجمة السلامى في : ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني الدمشقي (ص ٥٢ — ٥٤) وطبقات القراء (٢ : ١٣٩ ، الرقم ٣٠٠٢) ، والدرر (٣ : ٤٣٩ — ٤٤٠) ، وذيل طبقات الحفاظ للسيوطي (ص ٣٦٦) ، والشذرات (٦ : ٢٣٤ — ٢٣٥) . وقد تحرف الاسم في الشذرات إلى « ابن شافع » بدلاً من « ابن رافع ».

١٥ — جامع الأنوار في مناقب الأبرار : وهو كتّاب في تراجم أولياء بغداد . ألّفه باللغة التركية مرتضى افندي الشهير بنظمي زاده ، المتوفّى سنة ١١٣٣ هـ .

لهذا الكتاب ترجمتان عربيتان : الأولى نقلها أحمد بن السيد حامد فخري زاده الموصلي مفتي الموصل ، المتوفّى سنة ١٢١٩ هـ ، بإشارةٍ من سعد الله بك نجل الحاج حسين باشا الجليلي الموصلي ، الذي تولى حكم مدينة الموصل في سنة ١١٤٣ هـ ، ثم تداول أمرها سبع مرات ، وكانت وفاته سنة ١١٧١ هـ . ومن هذه الترجمة نسخة خطية في المدرسة الحسينية بالموصل (مخطوطات الموصل ، ص ١٢٢ رقم ٢٨) بخطّ المترجم ، وأخرى في خزانة الأستاذ عباس العزّاوي ببغداد ، وثالثة في خزانة المتحف البريطاني برقم Or. ٨٨٦٣ وهي في ٨٤ ص.

والترجمة الثانية لعيسى صفاء الدين البندنيجي ، المتوفّى سنة ١٢٨٣ هـ. نقلها بزيادات واستدراكات عليها. منها نسخة في خزانة الأب أنستاس ماري الكرملي ببغداد ، في ٦٦ ص.(١) ونسختان في خزانة الأستاذ عبّاس العزاوي ، إحداهما قديمة . وهنالك نسخة رابعة عند جميل بك الطالباني في كركوك ، وخامسة عند الشيخ إبراهيم الدروبي ببغداد .

هذا وإنّ الكتاب بكلتا ترجمتيهِ غير مطبوع .

---

(١) فهرست مخطوطات خزانة مبعث الكرمليين ببغداد (مخطوط . الرقم ٣٣٦)

لقد كتب المستشرق كرنكو نبذة في لغة العرب (٧ سنة ١٩٢٧ ص ٢٩٨، ٢٩٩) عرّف بها هذا الكتاب. ثم تلاه الأستاذ يعقوب سركيس فوفاه حقه من الوصف والتدقيق في لغة العرب (٧ «١٩٢٧» ص٥١٨ — ٥٢٧). وقد استفدنا من كليهما في ما كتبناه على هذا الكتاب.

وترجمة الموصل في غاية المرام (سيأتي الكلام عليه) لياسين العمري (ص ٣٩٩ من مخطوط يعقوب سركيس). وفي تاريخ الموصل للقس سليمان صائغ (٢ : ٢٢١).

وترجمة البندنيجي في تذكرة الشعراء أو شعراء بغداد وكتابها في أيام وزارة داود باشا لعبد القادر الخطيبي الشهرباني. (ص ٣٤ الرقم ٢١ طبعة الأب أنستاس ماري الكرملي)، والمسك الأذفر (ص ١٣٠ ـ ١٣٢).

١٦ — رسالة في وصف حصار الأعجام لمدينة دار السلام: لعبد الجمال حسن بن عبد الباقي بن أبي بكر، المتوفى في حدود سنة ١١٥٦ هـ (راجع ترجمته في تاريخ الموصل لصائغ ٢ : ١٥٩ — ١٦٦). كتبها من بغداد إلى أحد أصدقائه في الموصل. وقد وقف على نسخة منها في ١٧ صفحة الأب صائغ فوصفها في تاريخ الموصل (٢ : ١٦٦) أولها: «تحية ألذ من نمير ماء الامداد لدى اشتداد ظماء الحصار... الخ». ولم يشر إلى محل وجودها. والمحاصرة المذكورة جرت سنة ١١٥٥ هـ.

١٧ — تاريخ قضاة بغداد: للشيخ محمد بن عبد الرحمن الرحبي البغدادي، المتوفى سنة ١١٩٧ هـ. الكتاب لما يطبع. ومنه نسخة بخط المؤلف تاريخها سنة ١١٧٣ هـ في دار آل الرحبي، وهي اليوم عند عبد القادر الرحبي المقيم في قرية بوهريز في العراق. ومنه نسخة ثانية عند الاستاذ الشيخ إبراهيم عبدالغني الدروبي، نقلها سنة ١٣٦٠هـ عن النسخة المذكورة.

١٨ — تاريخ نساء بغداد: لمحمد بن عبد الرحمن الرحبي المذكور أعلاه. وقفنا على نسخة منه لدى الشيخ ابراهيم الدروبي، نقلها بيده سنة ١٣٦٠ هـ عن النسخة الأم المحفوظة في بعض بيوتات بغداد.

١٩ — بهجة الإخوان في ذكر الوزير سليمان: لمحمود بن عثمان الرحبي. وهو في تاريخ الوزير سليمان باشا مؤسس دولة المماليك ببغداد سنة ١١٦٣ هـ. منه نسخة في خزانة المتحف البريطاني Cat, Cod, Mss, Or., No. 385 وأخرى في خزانة الأستاذ عباس العزاوي.

٢٠ — حديقة الورود في ترجمة أبي الثناء شهاب الدين محمود: وهو السيد محمود أفندي المعروف بالشهاب الآلوسي، المولود في بغداد سنة ١٢١٧ هـ، والمتوفى فيها سنة ١٢٧٠ هـ.

وهذا الكتاب مجموعة المدائح التي قالها بعض الفضلاء في حياته، والمراثي التي رثوه بها بعد مماته. جمعها تلميذه الملاّ عبد الفتاح أفندي المعروف بشواف زاده. وهو كتاب كبير. وقفنا على نسخة منه عند الأستاذ إبراهيم الدروبي نقلها بيده عن نسخة أخرى في بغداد.

وللشهاب الآلوسي، ترجمة ثانية، كتبها بعض تلاميذه طبعت في المجلد الأول من تفسيره الشهير الموسوم «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» (بولاق ١٣٠١هـ)، وعنوان ترجمته هناك «أريج الند والعود في ترجمة أبي عبد الله شهاب الدين محمود».

٢١ — غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام: لياسين العمري بن خير الله العمري الخطيب الموصلي المتوفى بعد سنة ١٢٢٥ هـ. ألفه سنه ١٢٢٠ هـ وأهداه إلى الوزير يحي باشا بن نعمان باشا الجليلي. منه نسخة في خزانة الأستاذ يعقوب سركيس ببغداد، ونسختان أخريان في خزانة الأب انستاس (فهرست مخطوطات الكرمليين، الرقم ٢٣٦ و٦٥٩) كتبت الأولى سنة ١٣٣٥ والثانية سنة ١٣٣٦ هـ، وفي كل منهما ٤٣٠ ص. وهنالك نسخة رابعة في خزانة الأستاذ عباس العزاوي، وخامسة لدى الشيخ إبرهيم الدروبي كتبها بيده.

وترجمة المؤلف في: منهل الأولياء (مخطوط عندنا، ص ١٣٥ — ١٣٦ وسيرد ذكره في هذا المقال)، وتاريخ الموصل لصائغ (٢: ٢٠٨—٢١٠)، والآداب العربية في القرن التاسع عشر لشيخو (١: ٣١)

٢٢ — لقط المفقود في آثار آل عبود: تأليف المقدسي يوسف بن ديمتري بن جرجس الخوري عبود. أصله من حلب، وقد غادرها سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ م) وقصد بغداد. ثم طوّف في البلدان، وعاد أخيراً إلى مسقط رأسه حلب، فتوفى فيها سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٦م). وقد كتب يعقوب سركيس ترجمة المؤلف في لغة العرب (٤ سنة ١٩١٤ ص ١٩ـ٢٣). وسيأتي بنا في الرقم ٢٣ من تواريخ بغداد، الكلام على تأليف لابنه.

وكان المقدسي يوسف في أثناء إقامته ببغداد، قد دوّن ما شاهده فيها من الأمور في كتاب وقفنا على نسخته الفريدة بخط مؤلفها في خزانة الأستاذ يعقوب سركيس. وقد نشر حضرته جانباً منه بمقدمة وتعليقات في لغة العرب (٤ (١٩١٤) ص ١٩ — ٢٣ و ٧٠ — ٨٠) ثم جاءت الحرب العظمى الماضية، فاحتجبت تلك المجلة، وظلّ باقي الكتاب غير مطبوع.

إن ما نشره الأستاذ سركيس يحوي أخبار السنوات ١٢١٥ — ١٢١٧ هـ.

٢٣ — نبذة من تاريخ بغداد والبصرة والمنتفق في أوائل المائة التاسعة عشرة للميلاد : كتبها الشمّاس ميخائيل بن المقدسي يوسف (انظر الرقم ٢٢ من تواريخ بغداد) بن ديمتري ابن جرجس الخوري عبُّود المتوفى في كلكتة في ١٨ آب ١٨١٤ م (١٢٣٠ هـ) . دوّنها حينما كان في البصرة بعنوان « بيان مقتصر شرح ما حدث بأيام عبد الله باشا والي بغداد الذي هو أول مملوك اشتراه سليمان باشا » .

نشرها يعقوب سركيس ، عن نسخة وحيدة بخطّ المؤلف محفوظة في خزانته في مجلة لغة العرب (٣ سنة ١٩١٣ ص ٥٦٣ ـ ٥٧٤ ، ٦٣٩ ـ ٦٥٩) . وفي عباراتها ركاكة، قال الناشر (لغة العرب ٣ : ٥٦٣ الحاشية ٤) : « لقد أبقيتُ سبك عباراتها على حالها بغير أدنى تغيير وما لم يتيسر لي قراءته أبقيتُ محله خالياً منه . وقد علقت بعض الحواشي على ما ظننت أنهُ يحتاج إلى فهمه الذين لا يحسنون لغة عوام العراق أو ليسوا منه »

٢٤ — تاريخ بغداد : لأبي المعاليَ الشيخ علي بن الشيخ محمد سعيد ابن الشيخ عبد الله السويدي البغدادي المتوفى سنة ١٢٣٧ هـ . أنبأنا مدوّنو سيرته ـ وهم قريبو عهدٍ منا ـ أن للسويدي هذا « تاريخ بغداد » لكنهم لم يشيروا إلى مواطن وجوده . ولم يتحقق لدينا وجود شيء من نسخهِ في خزائن الكتب المشهورة ، فلعلّه مزويّ في أماكن مجهولة .

وترجمة المؤلف في : تذكرة الشعراء (ص ٥٨) ، والمسك الأذفر (ص ٧٣ ـ ٧٩) ، والآداب العربية لشيخو (١ : ٩٣) ، ولغة العرب (٢ (١٩١٣) ص ٣٨٣ ـ ٣٨٥) من مقالٍ لكاظم الدجيلي .

٢٥ — مَطَالع السُّعُود في أخبار أعلم الوزراء وأعظمهم داود : لعثمان بن سند البصري ، المتوفّى سنة ١٢٤٢ هـ وقيل في وفاته غير ذلك (وقد مرّت الإشارة إليه في الرقم ٥ من تواريخ البصرة) . وهو تاريخ بغداد من سنة ١١٨٨ إلى ١٢٤٢ هـ . منه نسخة في خزانة كتب الأوقاف العامة ببغداد ، تتقوّم من ٣٠٨ ورقات ، وثانية في خزانة كتب المتحف العراقي (في ٣٩٥ ص) ، وثالثة في خزانة الأستاذ العزّاوي . وهاتان الأخيرتان منقولتان عن نسخة الأوقاف . والكتاب غير مطبوع .

وقد اختصره في سنة ١٢٩٠ هـ أمين بن حسن الحلواني المدني ، المتوفّى سنة ١٣١٦ هـ وطبعه على الحجر في بمبي (المطبعة الحسينية ١٣٠٤ هـ ، ٦٤ ص) بعنوان « مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود » . وقد أضاف إليه المختصر زيادات إلى ما بعد سنة ١٢٤٢ هـ .

وترجمة الحلواني في دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية ٢ : ٦٥٩) وقد جاء هناك

قول القائل : «ومما صنفه ، مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود . وهذا ليس بصواب فإنه مختصره لا مصنفه .

أما داود باشا ، فهو الذي تولى الحكم في بغداد من سنة ١٢٣٢ إلى ١٢٤٦ هـ . وكانت ولادته في تفليس نحو سنة ١١٩٠ هـ . ثم تقلبت به الأحوال حتى بلغ تلك المرتبة . مات سنة ١٢٦٧ هـ .

• • •

﴿ الكوفة ﴾: كثرت المؤلفات القديمة الموضوعة في أخبار هذه المدينة العراقية الشهيرة حتى جاوزت الخمسة عشر ، لا نجد منه اليوم سوى :

١ — أخبار الوافدين من الرجال من أهل الكوفة والبصرة والوافدات على معاوية ابن أبي سفيان : لأبي الوليد العباس بن بكار الضبي ، المتوفى سنة ٢٢٢ هـ . وقد أسلفنا القول في هذا الكتاب (انظر الرقم ١ من تواريخ البصرة) .

٢ — فضل الكوفة وفضل أهلها : للسيد الشريف أبي عبد الله محمد العلوي الحسني الموجود منه المجلد الأول في الخزانة الظاهرية بدمشق (١) .

• • •

﴿ الموصل ﴾ أما ما أُلف في الموصل وأخبارها ورجالها ، فالذي أحصينا (٢) منه ينيف على الثلاثين كتاباً ، ضاع منها الكثير ، والذي صمد منها بوجه الدهر :

١ — تاريخ الموصل : للإمام المؤرخ أبي زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم الأزدي (٣) الذي كان قاضياً في الموصل ، وعاش في أواخر المائة الثالثة للهجرة . ذكره السخاوي (الإعلان بالتوبيخ . ص ١٣٣) والحاج خليفة (كشف الظنون ٢ : ١٤١ فلوجل) وغيرهما . والكتاب على ما ترجح الرأي عندنا يتألف من ثلاثة مجلدات ، سلم منها الثاني ، وهو مخطوط فريد في خزانة المتحف البريطاني ، كُتب سنة ٦٥٤ هـ ، وعنه نُقلت بعض النسخ : ففي دار الكتب المصرية (انظر فهرستها ٥ : ١١٧ الرقم ٢٤٧٥) نسخة مأخوذة بالفتغراف . كما أنّ

---

(١) حبيب زيات : خزائن الكتب في دمشق وضواحيها (ص ٣٥ الرقم ٩٣)

(٢) في مقالنا « الموصل وكتب التاريخ » المنشور في مجلة « النجم » بالموصل (٧ سنة ١٩٣٥ ص ٣٧١ — ٣٨٢) تفصيلات وافية في هذا الموضوع

(٣) أعددنا بحثاً لهذا الكتاب ولمؤلفه ، ننشره في فرصة أخرى .

في خزانة الخوري سليمان صائغ بالموصل نسخة فتغرافية ثانية ، نقلت عنها بيدي سنة ١٩٣٦ نسخة هي الآن في خزانتي ببغداد .

إنّ هذا المجلد ، يتناول أخبار الموصل في أواخر عهد الدولة الاموية وأوائل الدولة العباسية ، أي من سنة ١٠١ إلى سنة ٢٢٤ للهجرة .

وقد نشر يوسف أليان سركيس (لغة العرب ٦ : ١٩٢٨ ص ١١٢ — ١١٦) نبذتين قصيرتين من هذا التاريخ :

الاولى في ذكر « الدار المنقوشة » في الموصل ، والثانية في حفر « النهر المكشوف » في الموصل . أما المجلد بكماله فلمّا ينشر .

٢ — تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصل : لعز الدين بن الأثير الجزري ، المتوفى سنة ٦٣٠ هـ . وهو صاحب التاريخ المشهور بالكامل .

وتاريخ الدولة الأتابكية ، يتناول أخبار الموصل من سنة ٥١٢ إلى ٦١٢ للهجرة . وقد طبع في باريس سنة ١٨٧٦ في ٣٩٤ صفحة بقطع الربع الكبير ، نصف الصفحة الأعلى للمتن العربي ، والنصف الآخر للترجمة الفرنسية التي وضعها ناشره المستشرق البارون دي سلان De Slane ، وذلك ضمن المجلد الثاني من مجموعة تواريخ الحروب الصليبية حسب أخبار المؤرخين الشرقيين » Recueil des Historiens des Croisades : Historiens Orientaux (T. II, 2e Partie, Paris, 1876) مأخوذاً عن النسخة الخطية الباريسية الرقمة ١٨٩٨ . ويرى عنوانه في قائمة باريس هكذا : « الباهر في تاريخ الموصل » . وكلاهما شيء واحد .

وابن الأثير هذا تجد ترجمته في : الوفيات (١ : ٤٩٤ — ٤٩٥) ، وطبقات السبكي (٥ : ١٢٧) وتاريخ أبي الفداء (٤ : ٣٩٨ طبعة ريسكي = ٣ : ١٥٤ طبعة مصر) ، والبداية والنهاية (١٣ : ١٣٩) ، ومفتاح السعادة لطاش كبري زاده (١ : ٢٠٦) ، والشذرات (٥ : ١٣٧) .

٣ — الروض النضر في (تراجم) أدباء العصر : لعصام الدين عثمان بن عليّ العمريّ الموصلي ، المتوفّى سنة ١١٨٤ هـ . ترجم فيه ١٢٣ أديباً أغلبهم من أبناء الموصل ، وأورد قطعاً من شعرهم ونثرهم . الكتاب لم يطبع . منهُ نسخة في خزانة العزاوي ببغداد . وذكر الأب صائغ (تاريخ الموصل ٢ : ١٨٢) أن منه نسخة في المتحف البريطاني ، وأخرى في برلين ، كما أنهُ وقف في الموصل على نسخة أخرى في ٧٤٨ صفحة من القطع الكبير .

أما المؤلف فتجد ترجمته في : منهل الأولياء (مخطوط عندنا ، ص ١٠٠ — ١٠١) ، وسلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر للمرادي (٣ : ١٦٤ — ١٦٦) ، وتاريخ الموصل لصائغ (٢ : ١٨١ — ١٨٥) .

٤ — شمامة العنبر والزهر المعنبر : لمحمد بن مصطفى الغلامي ، المتوفى سنة ١١٨٦ هـ . أغلب ما فيه تراجم شعراء الموصل وأدبائها من أهل المائة الثانية عشرة للهجرة . والكتاب في ٢٧٠ صفحة بقطع الثمن ، يشتمل على تراجم ٤٢ أديباً من الموصل ، وخمسة من بغداد ، وما لكلٍّ منهم من آثار وتصانيف . ويعدهذا الكتاب أدبيًّا أكثر منه تاريخيًّا أو سيريًّا ، فقد صرف المؤلف جلّ عنايته إلى تنميق عبارته ، وأهمل في الغالب تعيين السنين وربط الحوادث بها . منه أربع نسخ في الموصل : إحداها في خزانة الخوري سليمان صائغ (تاريخ الموصل ٢ : ١٧٧) ، والثانية في خزانة شريف چلبي ابن الحاج عبد الله زكريا (مخطوطات الموصل . ص ٢٨٧ الرقم ١ أسفل) وهي في ١٢٤ صفحة ، تاريخها ١٢٠٧ هـ . والثالثة في خزانة عبد الله افندي ابن الحاج علي افندي العمري (مخطوطات الموصل . ص٢٩١ الرقم٢) والرابعة في خزانة مصطفى أفندي ابن محمود افندي العمري (مخطوطات الموصل . ص ٢٩٨ الرقم ٥) تاريخها ١٢٣٠ هـ . ومن هذا الكتاب أيضاً نسخة في خزانة الأب أنستاس ماري الكرملي ببغداد (مخطوطات الكرمليين . الرقم ٣٥٤) كتبت سنة ١٣٢٢ هـ في ٣٣٢ ص . وأخرى في خزانة الأستاذ العزاوي .

الكتاب لم يطبع ، وإنما نشر خلاصته الأستاذ محمد رؤوف الغلامي (١)

وترجمة المؤلف في سلك الدرر (٤ : ١٢٤) وقد قال إن وفاته كانت في سنة ١١٧٦ هـ بخلاف المراجع الأخرى . وله ترجمة في منهل الأولياء (مخطوطنا . ص ١١٠ — ١١٢) ، وتاريخ الموصل (٢ : ١٧٦ — ١٧٩) وفي « الشمامة » ذاتها : وقد أفرد الأستاذ محمد رؤوف الغلامي كتاباً قائماً بذاته في ترجمته عنوانه » العلم السامي في ترجمة الشيخ محمد الغلامي » (الموصل ١٩٤٢) .

٥ — منهل الأولياء ومشرب (ومورد) الأصفياء في سادات الموصل الحدباء : لمحمد أمين بن خير الله الخطيب العمري الموصلي ، المتوفى سنة ١٢٠٣ هـ . دون فيه تاريخ الموصل منذ عصورها حتى نهاية سنة ١٢٠١ هـ . ووطأ له توطئة في وصف موقع الموصل وما يجاورها من القرى والبقاع .

---

(١) راجع ذلك في كتاب العلم السامي (ص ٢٦٥ — ٢٩٧)

ثم بحث في حكومات الموصل، وقد أوجز في هذا الباب واستعان فيه بما تقدمه من الأسفار التاريخية وعلى الأخص تاريخ أبي الفداء. ثم أفرد بحثاً خاصاً لرجالات الموصل وفضلائها مع إيراد شيء من نظمهم أو نثرهم. ثم ذكر سير الأنبياء والأئمة والشيوخ والصالحين ذوي المراقد والمقامات في مدينة الموصل. وهذا البحث، مع ما يعتوره من مواطن ضعيفة، يعد من أهم وأقدم ما كتب في المراقد والمزارات الموصلية (١). ثم ختم المؤلف كتابه ببحث في كرامات الأولياء. فالكتاب إذن مرتب على مقدمة وأبواب وخاتمة. وهو لم يطبع. منهُ نسخ خطية كثيرة: إحداهنَّ في برلين Ahlwardt, No 9801 كتبت سنة ١٢٦٣ هـ. وقد وصفت هذه النسخة أيضاً في فهرست المخطوطات السريانية في برلين Sachau, No. 335 والنسخة الثانية في خزانة المتحف البريطاني بلندن Rieu, No 679 تاريخها ١٢٩٧ هـ. وفي الموصل نسخة في خزانة سليمان بك الجليلي (مخطوطات الموصل. ص ٢٨٧ الرقم ٢)، وثانية في خزانة الدكتور داود الجلبي (مخطوطات الموصل. ص ٢٨٥- ٢٨٦ الرقم ٧٦)، وثالثة في خزانة الخوري سليمان صائغ. وفي بغداد نسخة في خزانة كاتب هذه السطور، وأخرى في خزانة الأستاذ عباس العزاوي. كما أن في دار الكتب المصرية (فهرست الدار ٥ : ٣٧٢) نسخة رقمها ٣١٩٣، وأخرى في خزانة كتب البلدية بالإسكندرية (معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف إلياس سركيس. حاشية الصفحة ٣٥) وأخرى في خزانة جامعة استانبول.

فتكون نسخ هذا الكتاب التي وقفنا على خبرها بلغت عشراً. فليته ينشر بالطبع لتعم فوائده القراء.

وترجمة المؤلف في: الدر المنتثر لأخيه ياسين العمري (مخطوط)، وغرائب الأثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر لياسين العمري أيضاً (ص ١٩ طبعة صديق الجليلي) وتاريخ الموصل (٢: ٢٠٥ — ٢٠٨).

وقد اختصر هذا الكتاب الأستاذ سليمان الدخيل. ومن هذا المختصر نسخة في خزانة الأب أنستاس (مخطوطات الكرمليين ببغداد. الرقم ١٤٨).

٦ — **منية الأدباء في تاريخ الحدباء**: وهو في أخبار الموصل وأدبائها وشعرائها، لياسين

---

(١) نذكر في هذا المقام كتاباً ألفه نقولا سيوفي، قنصل فرنسة في الموصل (المتوفى سنة ١٩٠١) جمع فيه ما وقف عليه من الكتابات العربية المحررة فوق أبنية الموصل كالمساجد والمراقد والمدارس وغيرها. وهو مخطوط في باريس Blochet, Eo 5142 وعنه صورت نسخة لخزانة كتب المتحف العراقي ببغداد. وقد وصفنا هذا الكتاب النفيس في مجلة النجم (١٠ سنة ١٩٣٨ ص ١٣٥ — ١٤٤)

الخطيب بن خير الله العمري الموصلي ، المتوفى بعد سنة ١٢٢٥ هـ . لقد ذكرنا في مطاوي بحثنا (انظر الرقم ٢١ من تواريخ بغداد) كتاب ياسين في تاريخ بغداد) الموسوم بغاية المرام . أما هذا الثاني الذي وضعه في تاريخ الموصل فمنه نسخة في المتحف البريطاني Cat. Cod. Mss. Or., p 578 رقم ١٢٦٥، تاريخها ١٢٣٢هـ وهذه موضوعات الكتاب:

فصل في ذكر الموصل الحدباء . فصل في ذكر من ملكها في الاسلام . فصل فيما في الموصل من مراقد الأنبياء. فصل في ذكر ما كان للموصل من القرى والحصون في الزمان القديم. فصل فيما وقع بها من الحوادث السماوية والأرضية والفتن . خاتمة في ذكر دجلة ومحاسنه وسبب أصله . وهذا الكتاب غير مطبوع

٧ — شجرة في نسب نقباء الموصل: لا نعلم واضعها ،منها نسخة في خزانة المحامي محيي الدين أبي الخطاب بالموصل (مخطوطات الموصل ص. ٢٩٨ الرقم ٤ في الأعلى) . كان هؤلاء النقباء فيما مضى أسرة كبيرة ، تولت النقابة في الموصل قروناً ، وصار لها فروع في نصيبين وغيرها ، ثم انقطع ذكرها في نحو أواسط المائة الثامنة للهجرة .

٨ — تراجم بعض علماء الموصل :مخطوطة جاء في أولها : « هذه أوراق في ترجمة بعض العلماء والشعراء والأدباء الناشئين في بلدة (الـ) موصل الخضراء ، في تاريخ المائة الثانية عشرة من هجرة سيد البشر الذين هم قبل المائة بسنين . والمخطوطة في خزانة الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف بزحلة (لبنان) ، في مجموع يتألف من ١١ قسماً ، والبحث المشار إليه هو السادس من أقسام ذلك المجموع (راجع : مجلة النجم ١ (١٩٢٩) ص ٥٦٨ — ٥٧٣ ، المراجعة ص ٥٧٢ ، ولغة العرب ٥ (١٩٢٧)ص ٧٠ — ٧٦) . ويرى الدكتور داود الجلبي (لغة العرب ٥ (١٩٢٧) ص٢٣٤) أن هذه المخطوطة إنما هي كتاب الدر المنتثر في تراجم فضلاء القرن الثاني عشر لياسين العمري .

٩ — حصار نادرشاه (طهماسب قولي) للموصل وانسحابه عنها خائباً : وهي أرجوزة تاريخية في ٤٥٨ بيتاً ، وصف فيها الناظم محاولة نادرشاه الاستيلاء على الموصل سنة ١٧٤٢ م وخيبته في ذلك ، مطلعها :

أحمدُ ربي خالقي معيني   في كل وقت وكل حين

وهي لم تطبع . منها نسخة في خزانة امين بك الجليلي بالموصل (مخطوطات الموصل ص ٢٦٤ المجموع رقم ١٢) ، وأخرى في خزانة الدكتور داود الجلبي (مخطوطات الموصل ص ٢٧٩ ، الرقم ٦١ ، الفقرة ٣) .

١٠ — أرجوزة خليل افندي البصيري في وصف حصار الموصل : وهو خليل بن علي البصير ، المتوفى سنة ١١٧٦ هـ ، بعث بها إلى السيد عبد الله افندي (سيأتي ذكره) وصف فيها محاصرة الموصل أيضاً . وهذا مطلعها :

الحمد لله الســلام المؤمن   الملك المقتــدر المهيمن

وآخرها : ماashتدَّتِ الفتنةُ والمخاصمه   وامتدّتِ الهُدْنَة والمسالمه

إني أنا المُقِرُّ بالتقصيرِ   المستهامُ الحافظُ البصيري

والأرجوزة في ٦٩ بيتاً . منها نسخة في خزانة برلين Ahlw, No, 9802. A, تاريخها ١٢٤١ هـ . وهي لم تطبع .

ترجمته في : منهل الأولياء (مخطوطنا ، ص ١٠٥)، وسلك الدرر (٢ : ١٠٢ — ١٠٣) وقد أورد المرادي له هناك ثمانية أبيات ضادية القافية ، أرّخ فيها محاصرة الموصل ، مطلعها:

كفى الله أهل الموصل الشر إذ أتى   عدوٌّ لهم من جانب الشرق ناهض

وللخليل البصيري ترجمة مطولة في تاريخ الموصل (٢ : ١٧١ ـ ١٧٤) ، ومتوسطة في تذكرة الشعراء (ص ٢٣ — ٢٤) ، وموجزة في مخطوطات الموصل (ص ١٥) والعلم السامي (ص ٥٢ و ٢٧٠) .

١١ — أرجوزة أخرى في حصار نادر شاه للموصل : قوامها ٢١٥ بيتاً ، هذا مطلعها :

الحمــد لله العزيز الغـالب   الناصر الممد ذي المواهب

وآخرها : ما أغمدت قواضب الـكفاحِ   بين الورى في السلم والصلاح

من المحبّ المخلص المبـاهي   بحب أهل الفضل عبـد الله

و « عبد الله » هذا ، هو الذي بعث إليه خليل البصيري بأرجوزته المارة الذكر . وهو السيد عبدالله الموصلي المعروف بالفخري ، المتوفّى سنة ١١٨٨ هـ (طالع ترجمته في : منهل الأولياء) مخطوطنا ، (ص ١٠٤ـ١٠٥)، وتاريخ الموصل (٢ : ١٨٧ ـ ١٨٩) ، والعلم السامي ص ٢٦٩). وهذه الأرجوزة لم تُطبع . منها نسخة في خزانة برلين Ahlw, No 9802. B. تاريخها ١٢٤١ هـ . ونسخة أخرى في خزانة الأستاذ يعقوب سركيس ببغداد (ضمن مجموع أدبي، وهي في الصفحة ٢٣٦ إلى ٢٥٠ منهُ) وقد أوردها الشيخ عبد الرحمن السويدي المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ في كتابه « حديقة الزوراء في تاريخ الوزراء » .

وترجمة السويدي في : سلك الدرر (٢ : ٣٣٠) والمسك الأذفر (ص ٦٥ — ٦٨) ، والآداب العربية لشيخو (١ : ٩٢) ، ولغة العرب (٢ (١٩١٢) ص ٢٧٨ — ٢٨٠ من مقال للاستاذ كاظم الدجيلي) .

ومن هذا الكتاب النسخة الأمّ في المتحف البريطاني ، وعنها نسخة مصوّرة في خزانة عباس العزاوي . وذكر الأستاذ عز الدين التنوخي (مجلة المجمع العلمي العربي ٨ سنة ١٩٢٨ ص ٤٤٩) أن من حديقة الزوراء نسخة في المدينة المنوّرة ، في خزانة شيخ الاسلام عاوف حكمت . وقد اختصر هذا الكتاب سليمان الدخيل ، فجاءت « الأرجوزة » في المختصر ، الذي نجد نسخته الأصلية في خزانة الأب أنستاس ماري الكرملي ، وعنها نقلت نسخة الأستاذ يعقوب سركيس .

١٢ — أرجوزة السويدي في حصار الموصل : وهي للشيخ عبد الله السويدي المتوفى سنة ١١٧٤ ﻫ ، عارض بها أرجوزة البصيري ، مطلعها :

الحمد لله المعزّ الحافظ   إذ بات ذو الفتوى بعيش خافض

وآخرها :

ما قامت الفرسان للمجادلهْ   لنصر دين الله في المباهلهْ

والأرجوزة تقوم على ١٦٨ بيتاً . منها نسخة في خزانة الأستاذ يعقوب سركيس ، ضمن المجموع المذكور آنفاً (١)

وترجمة المؤلف في : سلك الدرر (٣ : ٨٤ — ٨٦) ، والمسك الأذفر (ص ٦٠—٦٤) والآداب العربية لشيخو (١ : ٩٢) ، ولغة العرب (٢ (١٩١٢) ص ٢١٩ — ٢٢٣)

* * *

﴿ النجف ﴾ لمدينة النجف أخبار كثيرة في المصنّفات التاريخية والبلدانية . وقد بلغت المؤلفات الموضوعة فيها خاصة نحواً من خمسة ، انتهى إلينا منها :

١ — كتاب فرحة الغري (٢) : للنقيب السيد العلامة الفقيه غياث الدين عبد الكريم ابن السيد أحمد الطاووسي (٣) ، المتوفّى سنة ٦٩٣ ﻫ من آل طاووس العلويين المشاهير . طبع في إيران سنة ١٣١١ ﻫ .

٢ — الدلائل البرهانية في تصحيح الحضرة الغروية : وهو مختصر فرحة الغري ، لمؤلف مجهول . قال صاحب ماضي النجف وحاضرها (ص ٣): إنه رآه في الخزانة الرضوية سنة

---

(١) في مخطوطات الموصل (ص ٢٦٤ ، الرقم ١٢) وصف مجموعة في خزانة أمين بك الجليلي ، « فيها ثلاث رسائل تبحث عن محاولة نادرشاه الاستيلاء على الموصل وعن خيبته . إحداها منظومة تركية ، والثانية نثر تركي ، والثالثة منظومة عربية » . ونحن لا نعرف شيئاً عن هذه الثالثة ولا عن قائلها .

(٢) راجع ماضي النجف وحاضرها : لجعفر ابن الشيخ باقر آل محبوبة النجفي (ص ٣)

(٣) نود أن نشير خاصة إلى أن له ترجمة موجزة في الحوادث الجامعة (ص ٤٨٠)

١٣٤٩ هـ . وقد نسبه السيد جعفر آل بحر العلوم (ماضي النجف وحاضرها . ص ٣) إلى الشيخ أحمد الجؤذري النجفي ، الذي اختصره سنة ١٠٤٨ هـ .

• • •

﴿ واسط ﴾ كانت مدينة واسط عظيمة الشأن في تاريخ العراق ، ممّا حمل المؤرخين على العناية بتدوين أخبارها . وقد بلغت المؤلفات الموضوعة في تاريخها خمسة ، لا نعرف منها اليوم سوى واحدٍ فقط ، وهو :

« تاريخ واسط » : لأسلم بن سهل الرزّاز الواسطي المعروف ببَحْشَل ، المتوفّى سنة ٢٨٨ وقيل ٢٩٢ للهجرة . نسخته الفريدة في الخزانة التيمورية (الرقم ١٤٨٣ تاريخ) بدار الكتب المصرية . وعنها نُقِلتْ نسختان هما الآن في خزانة كتب المتحف العراقي ببغداد ، إحداهما مصوّرة ، والثانية مخطوطة . وعن هاتين النسختين نقلنا نسخة لخزانتنا .

وكنّا قد نشرنا في جريدة « الأخبار الأسبوعية » (١) بحثاً مستفيضاً عن هذا الكتاب الذي لم يطبع وعن مؤلفه ، كما أننا اخترنا منهُ فقرات كثيرة ، كانت أول ما نشر من هذا التاريخ .

وترجمة المؤلف في : معجم الأدباء (٢٥٦:٢) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٢١٢:٢) ، وتاج العروس للسيّد مرتضى الزبيدي (٢٢٢:٢) . وقد نوه بذكره السمعاني في الأنساب (مادة : الواسطي) ، وياقوت الحموي في معجم البلدان . والرزاز نسبة إلى « الرزازين » المحلة السفلى بواسط على ما في معجم الأدباء وتذكرة الحفاظ . وقد أغفلته كتب الأنساب التي يصل اليها الباحث ، فهو من المستدركات عليها .

• • •

﴿ خاتمة البحث ﴾ فهذه على ما رأيت ، قرابة مائة وعشرين كتاباً عربيّاً قديماً ، صنفت في تاريخ ست مدن عراقية لا غير . ولسنا نعرف منها اليوم سوى ثلثها ، بل أقل من ذلك إن تحرينا الأمر تحرياً صادقاً . فكم خسارتنا يا ترى في هذا الشأن ؟ وأين نحن من مخلفات السلف التي جاوزت حدود التصديق لسعتها ووفرتها ؟ وهل يأتي يوم يعثر فيه على ما ضاع أو على بعضه ، فتقر به عيون العلماء والباحثين ، وتتسع به ثروتنا الأدبية والتاريخية ؟

بغداد
كوركيس عواد

---

(١) راجع أعدادها ٧ و ٨ و ٩ الصادرة في بغداد ، بتاريخ ٨ و ٢٢ تشرين الأول و ٥ تشرين الثاني من سنة ١٩٣٨

◆

باب الأخبار العلمية

جوائز نوبل في الطب ووظائف الأعضاء

أذيع من ستوكهلم عاصمة السويد أن جائزتي نوبل في الطب ووظائف الأعضاء في سنتي ١٩٤٣ و ١٩٤٤ منحتا لأربعة علماء في الولايات المتحدة، ثلاثة منهم أميركيون والرابع دنماركي فرَّ من الدنمارك ولجأ إلى أميركا منذ أربع سنوات.

وقد منحت جائزة سنة ١٩٤٣ للدكتور إدورد أدلبرت دويزي أستاذ الكيمياء الحيوية في مدرسة الطب بجامعة سان لويس، وللدكتور هندريكس دام الدنماركي الملحق الآن بمستشفى سترونغ التذكاري بمدينة روتشستر في ولاية نيويورك.

أما جائزة سنة ١٩٤٤ فقد منحت للدكتور جوزيف إرلانجر أستاذ وظائف الأعضاء في جامعة وشنطن بمدينة سان لويس وللدكتور هربرت سپنسر جاسر مدير معهد روكفلر، لبحثهما في الوظائف المختلفة لأعصاب معيّنة

فيتامين النزف

إن البحث الذي منحت من أجله جائزة ١٩٤٣ للعالمين دام ودويزي مدارهُ كشف الفيتامين K المانع للنزف وتحقيق فوائده ووجوه استعماله. وقد وصفنا بحثهما في المقتطف (إبريل ١٩٤١ صفحة ٣٨٩) وقد روينا حينئذٍ حادثة نعيدها هنا لأنها تمثل خير تمثيل، تأثير هذا الفيتامين ونفعهُ:

فالمعروف الآن ان مقدار المادة التي تجمد الدم، قليلة جدًّا في الوليد لأسباب مجهولة. وأصغر جرح يصيب الصغار عند الولادة أو في الأيام الأولى بعدها يستنزف دمهم فيموتون. ومن الشواهد على نفع هذا الفيتامين أن طفلاً ولد وبعد ولادتهِ بثلاثة أيام، وجد دم في أنفهِ فاستخرجت قطرة دمٍ من قدمهِ للبحث، فوجد أنها جمدت بعد ١١ دقيقة من استخراجها. وبقي دم جرح القدم يسيل ١٢ ساعة فجُرّع مقداراً صغيراً من فيتامين K فوقف النزف من قدمهِ وبعد ٩٠ دقيقة قصر وقت تجمّد الدم إلى النصف ثم إلى الوقت العادي وهو ٣ دقائق.

الكينا المصنوعة

وفّق عالمان أميركيان شابان — روبرت ودوارد ووليم دورنغ — إلى صنع الكينا بالتأليف الكيميائي، فحلاّ بذلك مشكلة ما فتئت تشغل فريقاً من الكيميائيين منذ قرن من الزمان .

والكينا المصنوعة بالتأليف الكيميائي، تختلف عن البلاسموكين والأتبرين، وهما كالكينا عقّاران فعّالان في قتل طفيلي الملاريا . على أن البلاسموكين والأتبرين بديلان من الكينا أي أنهما مادتان تفعلان فعل الكينا، على حين أن الكينا المصنوعة هي الكينا الطبيعية ذاتها ولكنها مصنوعة بأيدي البشر بدلاً من أن تستخلص من لحاء الشجر .

وفائدة الكينا المصنوعة، أنها تضمّ إلى الكينا الطبيعية وغيرها من العقاقير الصالحة لمكافحة الملاريا، في شن حرب شعواء على الملاريا في البقاع التي يكثر فيها المصابون ويعزّ العلاج . فإذا استطاع المهندسون الكيميائيون تطبيق أسلوب ودوارد ودورنغ على مقتضيات الانتاج التجاري الواسع النطاق كان عمل هذين العالمين نعمة من أعظم نعم العلم الحديث .

مركز الحياة في البيضة

ليس صفار البيضة هو الذي يتحوّل جنيناً فرخاً . إنما هو معين الطعام الذي يعتمد عليه الجنين في التغذية بعد تكوّنه . أما مركز الحياة في البيضة، فهو خلية صغيرة مكانها في أحد جانبي الصفار، ولا تمكن رؤيتها إلاّ مكبرة بالمجهر .

للكرنب نفع طبي

في القرن الثالث قبل التاريخ الميلادي أشار أحد حكماء الرومان باستعمال الكرنب المعروف في علاج الجروح . والبحث العلمي الحديث يميل إلى تأييد هذا القول . فقد وجد بيدرسون وفيشر، الباحثان في مركز التجارب الزراعية في نيويورك، أن في الكرنب مادة تفتك ببعض أصناف البكتيريا، وقدما نتيجة بحثهما في رسالة تليت في جمعية البكتريولوجيين الأميركيين . وهذه الأصناف هي ما يوصف عادةً بلفظي: «جرام السلبية» أي التي لا تنصبغ بحسب طريقة جرام للفحص المجهري، ومن أمثالها باشلس القولون. فأكل الكرنب الغض قد ينفع في السيطرة على نموّ بعض أنواع البكتيريا في المعى.

ولهذه المادة تأثير في بعض أنواع الستافيلوكوكس، التي تكثر عادة في الجروح، وهو تأثير لا يجاري تأثير البنيسيلين، ولكنه يكفي لتأييد ما قاله الحكيم الروماني، منذ ثلاثة وعشرين قرناً تقريباً .

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الخامس بعد المائة

٢٩٥ النقل الجوي الدولي : لفؤاد صروف
٣٠٢ رحلة خابت (قصيدة) : لبشر فارس
٣٠٤ هل نجحت الحرية في التاريخ : لقسطنطين ثيودوري
٣١١ صاحب الزمار (قصة) : لبلاسكو إبانيز ، نقلها صديق شيبوب
٣١٧ الحيوان المنمي : للأب أنستاس ماري الكرملي
٣٢٢ التكييف الاقتصادي : لسعد إبرهيم النمري
٣٢٨ شعب پولندة وطبقاته : لحسين المهدي غنام
٣٣٨ المدرسة الأمجدية : للدكتور أسعد طلس
٣٤١ المآصر في بلاد الروم والاسلام : لميخائيل عواد
٣٤٤ عمر الخيام كما أعرفه : لمحمود المنجوري

٣٤٧ باب المراسلة والمناظرة * حول المجلد الخامس من كتاب الحيوان للجاحظ : لعبد السلام محمد هارون

باب التعريف والتنقيب

٣٥٥ ١ — الكتب : « الحياة الانسانية عند أبي العلاء » تأليف بنت الشاطىء . نقد بقلم إبرهيم عبد القادر المازني — كتب أخرى ظهرت
٢ — التحقيق : كلمتان في الديوان المنسوب إلى المعري. بقلم: خليل شيبوب ومحمد عبد الغني حسن
٣ — المصادر : ما سلم من تواريخ البلدان العراقية . بقلم: كوركيس عواد

٣٩٠ باب الأخبار العلمية * جوائز نوبل في الطب ووظائف الاعضاء . فيتامين الزف . السكينا المصنوعة . مركز الحياة في البيضة . للكرنب نفع طبي